جوة الشبابيك

الطبعة الاولى 2021

- الكتاب: جوة الشبابيك
- المؤلف: بدور عمار
- مراجعة لغوية: عمار العربي
- تصميم الغلاف: شيماء أبو طالب
- تنسيق داخلي: حنين علي
- رقم الايداع: 2021/26819
- دولي : 978-977-6875-97-5

المدير العام: عزيز عثمان

لمراسلة الدار: daralmuntadaa@gmail.com

واتس آب: 01005186476

صفحة الدار على موقع فيس بوك:

978-977-6875-97-5

المنتدى للنشر والتوزيع

مجموعة قصصية

جوة الشبابيك

بدور عمار

مقدمـــــــــة

بين أزقة مواقفنا اليومية تكمن الحياة المتدفقة بخيوط من حرير تربط مصير بعضنا بعضًا رغم عدم تلاقينا، ولكن في النهاية كل قصة في حياة شخص ما ربما هي أنت في يوم ما أو موقف ما، وهذه مجموعة قَصَصية ستجد نفسك في أحد منعطفاتها.. إن لم تكن أنت البطل.

ابن الخليل



لم أعد طفلاً

كانت أمي مستلقية فوق فراشها، دخلت عليها بخُطوات غير مسموعة وبهدوء أغلقت الباب خلفي كعادتي عندما أستيقظ مبكرًا أسترخي على الأريكة المقابلة لسرير أمي، مكاني المفضل الذي يغلبني فيه النُعاس وتستكين روحي، وأفيق مع أمي بعد ساعة أو أقل تقريبًا،

فهي بعد صلاة الفجر تعاود النوم بعض الوقت، لتقوم في الثامنة أو بعدها بقليل تقريبًا، وأسمع خطوات أقدامها، فأفيق من فوري وتسألني كعادتها:

- أنت نايم هنا ليه؟

وأجيبها كل مرة بالجواب نفسه:

- قلقت بدري، قلت آجي أنام هنا وأنا باسمع القرآن.

وكانت من الفجر تفتح الراديو على إذاعة القرآن الكريم، ثم في الصباح تدير المحطة على «ربات البيوت».

كانت حياتي مع أمي الرحيمة العطوف لا تخلو من غَيرة إخوتي، كنت أصغرهم، بل إني في عمر أبناء أخي الكبير نفسه، وكانوا جميعًا حتى إخوتي البنات متزوجين، ولم يبقَ غيري أعيش مع أمي بمفردنا في بيتنا الكبير الذي كان من قبل يسع ما يقرب من سبعة عشر فردًا، أنا وإخوتي الذكور أربعة والإناث خمسة وجدي وجدتي وأربعة من الأعمام أصغر من والدي، والكل تزوج، وراح إلى بيته وحياته الخاصة، مات والدي وأنا في عمر السنة والنصف، ما كانت قدماي لمست الأرض بعد، كنت رضيعًا على يد أمي، تربيت يتيمًا،

رغم أن جدي وجدتي كانا أحياء، فقد عاشا بعد موت أبي سنوات لا أذكر عددها،

ولكن مع وجودهما وأعمامي وأشقائي الكبار كنت أشعر دومًا باليُتم، لم يحنُ عليّ سوى أمي التي كابدت الكثير حتى تربيني وتعوضني أبي الذي لم أره وقسوة إخوتي وعدم اهتمام جدي وجدتي، كنت دائمًا ملازمًا لأمي؛ لا تتركني ولا أتركها، وقد مات جدي وجدتي، والكل غادر إلى بيته متزوجًا وبقينا أنا وأمي وحدنا.

أخي الكبير أكمل دراسته الجامعية وتزوج وأنا في سن الثلاث سنوات تقريبًا، وأخواي الثاني والثالث توأمان، يصغران أخي الكبير بثلاث سنوات، وأخواتي البنات لم أوعَ عليهن في بيتنا، أول ما وعيت عليهن كن يزرن أمي آتيات من بيوتهن، فكنت لإخوتي طفلًا وعمري مقارب عمر أولادهم، فمنهم من يصغرني بثلاث سنوات أو أكثر بقليل، ومنهم من في مثل عمري.

أختي التي تزوجت قبل أن أولد لهذه الدنيا أبناؤها يكبرونني بأربع سنوات، فكنت ألعب معهم كأني أخوهم وليس خال بعضهم أو عم الآخرين، نلعب ونلهو ثم يذهب كل منا إلى بيته وأرجع أنا وحدي لأجد أمي وحيدة، إما تصلي، وإما تسبح بمسبحتها أو جالسة على وَسادة من القطن على أرضية الشرفة الخشبية تنظر من فتحاتها المصنوعة بدقة بالغة الجمال، صغيرة لكنها لا تحجب الرؤية، تكشف الشارع كله ولا يمكن أن يكتشف من في الشارع أنه يوجد من ينظر من داخل فتحات هذه الشرفة بأشكالها المصفوفة بنظام هندسي رائع، وكانت هذه وسيلة الترفيه الوحيدة لدى أمي، أو تأخذني من يدي لنزور خالتي في بيت جدي لأمي -رحمه الله- أو إحدى أخواتي البنات، ولم أرَ أمي يومًا زارت إخواني؛ هم من كانوا يأتون إليها بين الحين والآخر، حتى سافر أخي الكبير للعمل في بلد عربي وما عادت أمي تراه إلا في الإجازة السنوية، وكانت زوجته وأولاده يأتون إلى بيتنا ليقضوا أشهر الصيف معي أنا وأمي ليكون أيسر على زوجة أخي -وهي بنت عمنا أيضًا- أن تزور

أمها كل يوم وتترك أبناءها مع أمي لتأخذ راحتها عند أمها، وكنت سعيدًا بهذا، وكانوا أُنسًا لي ولأمين فهم أحفادها، حتى الطعام حلو مزاقه ونحن نأكل معًا بقلوب الأطفال البريئة، نهب كل ما نملك من الوشوشات المرحة والحكايات الساخرة التي تعلو معها ضحكاتنا، كان إحساسي بالوحدة واليتم يتقلص في وجودهم معنا أشهر الصيف، وكنت أصغر من أن ألاحظ معاملة زوجة أخي لأمي، كنت أرى أمي في كثير من الأحيان واجمة وغير سعيدة، ولم أجد تفسيرًا لذلك أو حتى احتمالًا محددًا.

كنت وأمي عندما يحضرون إلى البيت نترك الطابق الثاني بكل غرفه ومطبخه حتى الحمام ونصعد إلى الطابق الثالث، جناح من غرفة واحدة بداخلها غرفة صغيرة وشرفة وحمام صغير، ولم يكن هناك مطبخ، فهذا الطابق جَناح للنوم فقط، فالطابق الثاني أساس البيت، أما الطابق الأول فكان غرف استقبال للضيوف.

أشياء كثيرة ما كنت أنتبه إليها، وكل ما كان يهمني أن أجد من يلهو ويلعب معي ويكسر أيام وحدتي أنا وأمي في هذا البيت الكبير، ومرت الأيام وكانت أمي تعمل كل جهدها ألا تحرمني شيئًا، وتغدق عليّ من حبها وحنانها ورعايتها ما تخصني به دون إخوتي كأنها تعوضني جفاءهم الذي بدا واضحًا لأمي قبل أن أعيه، ورغم حجم المعاناة التي واجهت أمي من أعباء الحياة وشبح الفقر الذي يحوم حولنا، فقد تنكر لنا الجميع، وكلما حاولت أمي أن تطلب من أحد إخوتي أي شيء لمساعدتي انتشر النكد في البيت، وقابلوها بالجحود، فأخي الكبير يجيبها بقسوة: «أنا عندي عيال ومش ناقص هم على همي»، رغم أنه ميسور الحال ويستطيع أن يضمني إلى أولاده.

أما أخواي التوأمان، فواحد منهما يجيبها بخبث ومكر: «بصي، كل واحد يعيش على حسب ظروفه، وأنتِ يا أمي معاشك كله ليه هو».

أما توأمه فكان لا يزورنا إلا ويشتكي ضيق الحال وصعوبة المعيشة قاطعًا على أمي أي حوار، هؤلاء هم إخواني، بدلًا من أن يعينوها على مقومات الحياة أو يعاملوني بحنان على أني أخوهم الصغير اليتيم مستهم الغَيرة مني، وملأ قلوبهم حقدًا غير مبرر، تحت مسمى أن أمي تحبني أكثر منهم جميعًا، أصاب أمي مرض مزمن في أقدامها، والمعاش الذي تركه لنا أبي أصبح لا يكفي لإعاشتنا بعد نفقات العلاج.

اعتصمت أمي بالصبر وطَوَّقها اليأس، لكن دون أن تجزع، فقد كانت قوية الإيمان بالله وأنه القادر على كل شيء.

ولم أشعر أنا وأمي بالظروف التي تعاندنا حتى بدأت الحياة تكشف عن وجهها الآخر، وكلما كبرت عاما واتسع فهمي للأمور تصاعد بداخلي مركب النقص، وبدأت أشعر بخواء وتعاسة وكآبة مبكرة.

الطفولة كانت عالم من السعادة والبراءة التي لا يغزوها أي قبح، ولا يبلغ مداركها سوى اللَهو واللعب، ولا نرى في طفولتنا سوى الأحلام المزدانة بالأمل وحب الحياة، ننام بفرحة

على أمل أن نستيقظ على فرحة جديدة، تراودنا الحياة ببهجتها، فنستمتع دون عناء كأن الدنيا تدخر عناءها لتلفظه في وجوهنا دفعة واحدة، ويتبعثر الحلم بلا اختيار منا، نقبل أو نرفض.

انتهيت من الشهادة الإعدادية، ولم أحصل على مجموع يؤهلني لدخول الثانوية العامة، والحقيقة أنه ما كان عندي هذا الطموح، فقد كنت أذهب إلى المدرسة فقط لإرضاء أمي

التي كانت دائمًا تذكرني أن إخواني تخرجوا في الجامعة، وأنه لا بد أن أكون مثلهم، ولكنها نسيت أن بيني وبينهم فوارق لا يمكن أن أتخطاها، فقد كان لهم أبي السند والعون، أنفق عليهم بسخاء، وما وجدوا أي معاناة في كل مطالبهم حتى وصلوا إلى ما وصلوا إليه.

لم أفهم منطقك يا أمي وعدم استيعابك للمكان الذي يلائمني في تلك الحياة.

أنسيتِ انكماشي في صدرك باكيًا بسبب تأخري في دفع مصروفات المدرسة ومعاناتي في كل مرة يوبخني فيها مدير المدرسة أو الوكيل أمام زملائي؟ وبطيبة قلبك كنتِ تواسيني بدعواتك لي والتمني!

كم كنت بائسًا من مظهري وحذائي القديم البالي وقميصي القصير، كان زملائي يبدلون الكثير من ملابسهم وأحذيتهم، أما أنا! فقد عرفوني بالقميص والحذاء والبنطال بني اللون الذي أصبح كالحًا من كثرة الغسيل، كل هذا يا أمي وتظنين أنني سأدخل الجامعة مثل إخوتي؟ أنا لم أختر طريقي بإرادتي، أتممت دراستي وحصلت على مؤهل متوسط، فأصبح كل من حولي يعاملونني على أنني أقل منهم، أبناء إخوتي كبرنا معًا ولكنهم بدأوا يسخرون مني كأني أصبحت لا أنتمي إليهم، وقد ضاعت ملامحهم القديمة، وأصبحت باهتة، حتى أيام الصيف التي كنت أنتظرها بلهفة لتأتي زوجة أخي وأولادها عندنا حيلت جحيمًا، وأصبحت المسافة بيننا تتباعد، والفرق المادي يحكم عَلاقاتنا.

هي الحقيقة التي وعيتها أخيرًا حين صادف ذات مرة في إجازة الصيف وكان أخي الأكبر عائدًا من سفره حاملًا لهم الهدايا والملابس الجديدة، أغراض كثيرة لم أرها إلا مصادفة، وقتها عرفت أننا ما عدنا الصغار الأبرياء، فقد رأيت أبناء أخي وعليهم

ملابس جديدة وجميلة، وبمنتهى البراءة والسذاجة كنا نجلس جميعًا قلت لأخي وهو بمنزلة أبي وأنا في عمر أولاده:

- ليه ماجبتليش بدلة زي بتاعة أحمد؟

فما كان منه إلا أن لقنني درسًا غَيَّر مصير حياتي، فقد صفعني على وجهي صفعة طيرت من عيني الدموع قبل أن أبكي قائلًا وهو يضغط على يدي بقوة:

- مالكش دعوة بولادي، فاهم؟ وآخر مرة تبص على حاجتهم.

كان هذا أمام الجميع، وأمي التي لم تنطق بكلمة، فلم أستطع الرد، فقد هرب صوتي من حلقي، ولكني ركضت من أمامه بعد أن انتزعت يدي من يده الضخمة القاسية.

دلفت إلى غرفتي، ارتميت على سريري، واستسلمت إلى رقاد عميق، ومنذ هذه اللحظة أخذني شعور أن حياتي تتهاوى أمامي وتطايرت من قلبي كل معاني الأخوة تحت مظلة الغربة في بيت أبي، وتمكن إحساس اليتم من كياني حتى سكنت عيناي أحزان أكبر بكثير من سني.

أحدق في عيون أمي فلا أجد سوى حسرة الألم الكامن بداخلها، تمزق قلبي، وقد قالت لي أمي مرارًا إنها ستموت وهي ممزقة القلب حزينة ما دامت ترى حالي هكذا.

هربت من تعاستي إلى الركون إلى مجموعة من الأصدقاء، أقضي بينهم أغلب وقتي على أحد المقاهي، نلعب الطاولة، ونتحدث بالساعات بغير فتور ولا ملل.

وبدأت أتفوق في اللعب حتى أن بعض الزبائن كانوا يطلبون اللعب معي، وهذا الشيء الوحيد الذي يشعرني بسعادة متناهية لمكانتي الملحوظة بين عشاق اللعبة وزبائن المقهى،

وبالطبع لا تخلو جلستنا من «الشيشة» والسجائر، ولا مانع من أشياء أخرى، كنت لا أمانع في أي شيء يقدمه لي بعض رفقاء السوء كما يطلقون عليهم، وإن كنت لا أراهم بالسوء الذي يراهم به غيري، فأصبحت أسير في حياتي بنصف وعي، لا أفيق إلا من كلام أمي الذي ينغص عليّ حياتي وتحذيراتها بسبب سهري والسجائر والشيشة التي ضيعت مستقبل سمير ابن جارتنا وجعلته يسرق وطرده أبوه من البيت ولا يعرفون إلى أين ذهب،

وقد وصلت أخباري إلى إخواني وأعمامي، وعرف الكل أنني أقضي وقتي على المقاهي، فأصبحت في نظرهم الفاشل الذي لم ينفع في شيء وبدأوا يسخرون مني ولا أدري منذ متى

يهتمون لأمري أو لأمر أمي! يعتبرونني الآن «خرعًا»، أو بلغتهم «عويلًا» لا أصلح أن أكون أخاهم.

يتهمون أمي أنها من دللتني وجعلتني أشبه البنات ولا أصلح إلا لقراءة المجلات ومتابعة المسلسلات، وإنني عار قد لحق بالعائلة، وإن لم أرجع عن هذا الطريق، سيتبرأون مني كأنهم لم يتبرأوا حين تركوني منذ الصغر ولم يهتموا لأمري! بل ولم يعطفوا عليّ حتى بالكلمة الطيبة، والآن يواجهونني بالكراهية علنًا وحجتهم أنني ابن أمي المدلل الذي لطالما دافعتْ عنه.

وقد عذبوا أمي كثيرًا بكلامهم «شدّي عليه، أنتِ اللي خليتيه مش راجل ومش قادر يتحمل مسئولية».

ما هي المسئولية التي يريدونني أن أتحملها؟ حقًّا كلامهم يدعو إلى السخرية، ولكن دموع أمي من كلامهم اللاذع كانت تحرق قلبي حرقًا، يصدرون أحكامهم علينا، ونسوا أنني اليتيم الذي لم يحنوا عليه يومًا، نسوا أنهم منعوا أولادهم بعدما وصلنا إلى المرحلة الإعدادية أن يختلطوا بي لأنني فقير لا أملك ما يملكون فأحقد عليهم أو أطلب منهم أن يشاركوني أشياءهم، قد علمت هذا من ابنة أخي الصغرى حين سألتها

ذات مرة عن إخوانها ما عادوا يأتون ليلعبوا معي، فكان ردها سهمًا انغرز في خلجات قلبي دون أن تدري، قالت ببراءة:

- بابا قال لهم مايجوش يلعبوا معاك عشان أنت ماعندكش لعب زيهم وإن لبسهم أحلى من هدومك، فأكيد أنت هتغير منهم، وهددهم لو هيجوا يلعبوا معاك مش هيديهم مصروف ولا هيجيب لهم لعب جديدة.

وأكملت دون أن تعي ما تقذف به في وجهي من مُر الكلام:

- هو أنت ليه مش بتشتري هدوم جديدة؟ هي تيتا مش بتديك مصروف؟!

وأخيرًا التحقت بوظيفة في الجمعية الزراعية، وحاولت أن أتناسى ما عشت فيه من إذلال إخوتي لي منذ صغري وما خلفوا في قلبي من نتوءات جعلتني أهبط نحو القاع مستسلمًا، حاولت إقناع نفسي أنني أصبحت رجلًا وأحمل وظيفة كأي واحد منهم، بينما التحق أبناؤهم ممن في عمري بالجامعات وأصبحوا مؤهلين لوظائف مرموقة.

أعاني صراعًا يمزقني بين حرماني وضياع مستقبلي، ولكن يا أمي، ليكن ما يكون فقد سخر مني إخوتي وتندروا بي إلى حد جعلني لا أجد نفسي إلا على المقهى وسط

أناس لا يستطيعون أن يقللوا من شأني أبدًا، فلا أشعر معهم بالغربة، لم أجد غيرهم أنتمي إليه بروحي، فهم ضائعون مثلي يبحثون عن أرواحهم في نَفَس دخان يتطاير معه حزنهم،

أو شيء يبتلعوه فيغيبــوا عن واقعهم المرير.



حماة زوجة أخي

- إزيك يا نهى عاملة إيه دلوقتي؟
- الحمد لله يا هدى، والله تعبانة قوي وحاسة إن في زنّة كدا في دماغي كل شوي تكهربني وتخليني أترعش.
- ليه بس، ألف سلامة عليكِ، خلي بالك من نفسك ومن صحتك ماحدش بينفع حد.
- والله يا هدى من يوم ما محمود ضربني يوم الخناقة وأنا تعبانة أوي.
- بصي يا نهى الغلط عندك، دي مش أول مرة تتخانقوا بالطريقة دي وتاني بترجعي تسامحيه وتتنازلي عن حقك بسهولة.
- لا، لا، المرة دي مش هارجع، لازم أتطلق، أنا خلاص تعبت، أنتِ حكيتِ لماما؟
- آه، آه، طبعًا حكيت لها.

قالتها هدى بارتباك كأن الحروف لا تطاوعها لتُكَوِّن جملة مفيدة.

- وماما قالت إيه لمّا عرفت؟

تنحنحت هدى، وابتلعت ريقها بصعوبة قائلة:

- زعلت طبعًا وصعبتِ عليها وحلفت إنها هتخاصمه.

وبطيبة وسذاجة ردت عليها نهى:

- أيوا، أنا متأكدة إن ماما هتزعل عليا، أنا عمري ما اعتبرتها حماتي والله، غلاوتها عندي زي غلاوة ماما، وكمان أنا عارفاها دايمًا بتقول الحق ومايعجبهاش الحال المايل أبدًا.

ابتسمت هدى ابتسامة تملؤها الحَيرة وتخلو من الرضا والمصداقية لترد على نهى قائلة:

- طبعًا، طبعًا.

وتعاود الصمت كأنها لا تجد ما تؤيد به كلام نهى سوى الصمت.

- هدى، هو محمود رجع البيت عند ماما؟

وكان سؤالها يحوي عطفًا لا يليق بما فعله معها من خسّة وسوء أخلاق، لكنه الحب الذي يعمي البصائر حتى عن الحقيقة، خصوصًا وإن سكن قلبًا مثل قلب نهى ضعيفة الشخصية التي لا تعرف قيمة نفسها وعقلها ذا الإمكانيات المحدودة التي سمحت لمحمود أن يتحكم فيها كما يشاء، فيغضبها ويهينها ولا مانع من دفعة أو لكمة تهديد، حين يريد أن يداري شيئًا ما، سهرة مع أصحابه تمتد لشروق الشمس أو حتى تقصير في مصاريف البيت، ليصرف المال على ملذّاته وسهراته، أو اتفق معها على شيء ما، وفجأة يغيّر رأيه، فينفعل زوبعة لكي تغطي على كذبه ومداراة لرجوعه في الاتفاق، وعلى تلك الوتيرة تسير حياتهم الزوجية، وفي كل مرة تبكي نهى، وتشتكي إلى والدة محمود وهي والدتي أيضًا،

وبصفتي أخت زوجها تشتكي إليَّ أنا الأخرى، علّها تجد ما بيني وبين أمي من ينصفها، ويقف في صفّها مواجهة لمحمود.

داريت حماسي في الدفاع عن نهى وأنا أتحدث إلى أمي، وسألتها:

- ماما، كلمتِ محمود عن اللي عمله مع نهى؟
- كلمته وقلت له دي سخافة وقلة أدب.

أنظر إلى أمي وهي تتحدث بعيون زائغة كأنها تهرب من النظر إليّ، وبالفعل قامت تجوب المكان كأنها تبحث عن شيء ما لا تعرفه، والكلمات تتشاجر في فمها، أيهما تقول، الصدق ما بداخلها أم المجاملة التي ترضيني بها، فيخرج الكلام كأنه منقوص لبعض حروفه، ولم تجمع جملة واحدة مفيدة أو قاطعة تعبّر عن رأيها، فقطعت عليها الحديث بلهجة ملحّة وصارمة:

- ماما! يعني أنتِ راضيكِ اللي بيعمله في مراته دا كل شوية ومن غير سبب؟!

كأن أمي فوجئت من سؤالي المباشر، وبانزعاج شديد وصوت مخنوق بالغضب قالت:

- أخوكِ قال: «إن هي اللي غلطانة، فيها إيه لما أتأخر شوية؟»، ورجع البيت في الفجر، هي هتعمل له محكمة؟ أنتِ عارفة هي مش بتسكت أبدًا، كلام، كلام وأسئلة تطفش، هي اللي بتخنقه وتخليه يخرج عن وعيه.

وأشاحت بيدها في وجهي قائلة:

- هي تستاهل.

تنهدتُ تنهيدة تخرج من أعماق قلب يحترق من رائحة الظلم، ونظرت في أعين أمي، فأدارت نظرها عنّي فورًا لعلمها بما سأقول:

- ماما، أومال أنتِ ليه دايمًا كنتِ بتتخانقي مع محمود لما بيسهر ويتأخر برا البيت ويصرف فلوسه على حاجات مش صح؟ ليه كنتِ بتغضبي عليه؟
- بصي يا هدى، أنتِ الوحيدة اللي كنتِ بتهدي قلبي على أخوكِ وتقولي لي سامحي وبتصبريني على تصرفاته الغلط، ولولاكِ والله ما كنت أسامحه على ميراث أبوه اللي صرفه كله على الفاضي، دلوقتي بتلوميني إني بسامحه! فيه إيه؟
- ماما، أنتِ عارفة كويس أنا قصدي إيه.

ردت الأم بسرعة مقاطعة لكلام هدى:

- شوفي، قصدك ولّا مش قصدك، أنا أمه مارضاش عن تصرفاته، ألومه، أوبخه، أعمل أي شيء، أنا أمه، لكن مراته لا، مش من حقها كل شوية تنصب له محكمة، وبعدين هي كانت تطول تتجوز واحد زيه؟
- يا أمي، أنتِ عارفة إن أتقدم لها اللي أحسن من أخويا بكتير بس هي اختارته هو عشان بتحبه.
- بصي الراجل راجل وحُر في تصرفاته، هي عاوزة تتحكم فيه! إذا أنا أمه وماقدرتش عليه.

أسمع كلام أمي وهي تسترسل وبداخلي غضب يائس، وقد تداعت أمام عيني فجأة قصة أختي مع زوجها، حين دارت بينهم مشادة انتهت بأنها تركت بيتها غاضبة لبيت أمي بعد أن أخطأت في حق زوجها متجاهلة غضبه من خروجها المتكرر وإهمالها البيت وعدم اهتمامها به وتذكرت أمي وموقفها تجاه زوج أختي، فقد أصرت أنه المخطئ وأن تحكماته في غير محلها وأن من حقها أن تخرج وتتنزه كما يحلو لها، بل

وحرضت أختي على ألا تتنازل عن حقوقها وقالت لها بالحرف: «أنتِ مش خدامة عنده، لازم يعرف قيمتك».

قطع عليها حبل أفكارها صوت أمها تقول بتهكم وسخرية لا تخلو من التحدي:

- هي يعني عاوزة أخوكِ يقعد جانبها ليل نهار!؟ دا أنا مش باشوفه غير كل أسبوع ولازم يجيني وهو معلقها في دراعه، ولا مرة تسيبه يعدي عليا لوحده يمكن عاوزة أتكلم معاه في حاجة ومش عاوزاها تعرفها، والله ما بتهى أقعد أنا وابني مع بعض أبدًا.

اختنقت ملامحي أمام بريق التحدي داخل عيون أمي ومسحة من العجرفة تكسو وجهها وحديثها الذي ينقل الحقيقة من وجهة إلى وجهة، وضاق صدري حتى كدت لا أستطيع التنفس، وأمي تزيد وتستزيد في الشرح حتى بدا طبيعة كل ما بداخلها تجاه زوجة ابنها واضحًا جليًا، ونتيجة لما تأصل في نفسها من طباع.

ظللت أمامها أروض نفسي على تحمّل ما أسمعه من ظلم لزوجة لو كنت مكانها لفعلت أكثر بكثير مما تدعي أمي أنها فعلته، رغم أنه أبسط حقوقها في الدفاع عن استقرار بيتها واستقامة زوجها، فهل يا أمي لو كنت أنا من عارضت زوجي واعترضت على أخطائه وتصرفاته غير المسئولة ستنكرين ذلك مني؟ ستقفين في صفي أم في صف زوجي؟ هل سترضين لي ما فعله ابنك في زوجته؟

ظللّت ناظرة إلى أمي وهي تهب واقفة وصوتها يعلو بعبارة:

- خلّي أخوكِ يرتاح عندي شوية، ما هنا برضو بيته.
- بهذه الكلمات أنهت أمي كلامها وتركتني وقد انطفأ بداخلي الحماس في الدفاع عن زوجة أخي.



أحببت ابتسامته

أحببت ابتسامته المرة الوحيدة التي رأيته فيها مصادفة، حين كنت أجلس أنا وصديقتان في أحد المطاعم ننتظر طعامًا طلبناه، رأيته يدخل واثق الخُطى يمشي قاصدًا طاولة يجلس عليها ثلاثة الرجال، «يدخنون الشيشة» وتعلو ضحكاتهم لتملأ أرجاء المكان، فانضم إليهم ولا أدري لماذا راقبته طوال الوقت وقد رتّب لي القدر أن تأتي جلسته ومقعده أمامي فلا أبذل أدنى جهد كي أراه، بل وأرصد حتى رفّة عينيه بوضوح، وجاء النادل قائلًا:

- القهوة لحضرتك، أي طلبات تانية؟

وطلب هو الآخر «شيشة»، رشف قليلًا من قهوته، وأغمض عينيه منتشيًا في صمت حتى انتهى من احتساء قهوته، وقد أعجبتني تعبيرات وجهه حين عاود الحديث مع أصدقائه مبتسمًا، ارتعشت بداخلي مشاعر لا أعرفها.

قبل اليوم أنا مجرد فتاة لم أتجاوز أحلام الطفولة، وما زلت ألقي بنفسي في حضن أمي حين أكون غاضبة، ليس في مخيلتي إلا عالم من الأحلام البريئة مضاءة بأمنيات المستقبل،

ولكن حين رأيت عينيه وابتسامته، انحرفت عن ذاتي وتحررت من قيود خجلي وحقًّا لا أدري ما شدني إليه وجعلني أطارده بعيون الشوق متمنية أن يراني فيكتشفني ويستقبل فرحتي الوليدة في عمق عينيه، ولكن كل ما استطعت فعله أن أُبالغ في إعجابي بالطعام، وقلت لصديقاتي: إنّي سآتي إلى هنا كثيرًا بعد اليوم، ونسيت وأنا أدبّر تلك الكلمات أنهنَّ يعرفنَ عنّي عدم ترحيبي بالتردد على المقاهي

والمطاعم وأني أُفضل دائمًا كل شيء في البيت، فما كان منهنَّ إلا أن نظرتا إلى بعضهما وبدهشة شديدة قالت إحداهما لي:

نعم! من إمتى بتيجي الكافيهات؟

- يا ستّي حسيت في المكان براحة نفسية.

فردت الأخرى غير مصدقة:

- راحة؟! دا أنتِ طول الطريق تلومي فينا وتتهمينا بالتفاهة، فجأة كدة اتغيرتِ؟!

لم أرد على كلامهما، بل تظاهرت أنني مشغولة بالطعام لأنهي هذا الحوار، وبالتالي أرجع فأختلس النظر إلى صاحب الابتسامة الساحرة، كأني أرفض أن يغيب عن عيني لحظة واحدة، وفجأة خدمني القدر للمرة الثانية، وفي لحظة كنت أنظر فيها إليه دون أن أنتبه رفع عينيه فتقابلت عينانا، ونظر إليّ مثبتًا نظره، لم أستطع أن أسدل جفني عنه كأن عيناه أمسكتا بعينيّ فبقيت أنظر إليه كأني فقدت الوعي، ولم أفق حتى هزّتني إحدى صديقاتي:

- أميرة! في إيه؟ مركّزة كدا في إيه؟

وفي ثانية استداروا تجاه الناحية التي ثبت نظري عندها، فشعر هو بالإحراج؛ ثلاث فتيات ينظرن إليه وأدار وجهه متظاهرًا بعدم الاكتراث، أما أنا، فظهر الارتباك عليّ، وعلت دقات قلبي حتى ظننت أن كل من حولي يسمعها، وما سلمت من كلمات صديقتيّ اللاذعة، وما استطعت أن أكمل طعامي ويداي ترتجفان

محاولة استرداد أنفاسي بصعوبة، والخجل يطفو على وجهي، ولم ترحمني نغزات ندى وسمر المستفزة، كأنهن أمسكن بي متلبسة.

وفجأة رأيته يودع أصدقاءه مسرعًا نحو الخارج وبيده هاتفه يتحدث ويبتسم، تابعته بنظري خلف زجاج المقهى الواسع، فرأيت سيارة حمراء اللون تقودها فتاة جميلة الوجه.

نزلت لتركب في المِقعَد من الجانب الآخر مرتدية بنطالًا وشميز أبيض راقي الذوق على قد وخصر نحيل، تركت له مقعد القيادة ليركب وينطلقا، تبادلا الحديث والضحكات وتوارى عن ناظري دون أن أفيق من سحر ابتسامته.



صورة على الحائط

في الثامنة عشر من عمرها، ولكن منذ أن كانت في الخامسة عشرة وربما قبل ذلك وهي محط أنظار أقاربها وجيرانها، فالكل يصفها بالذكاء والهدوء المطعم بالرقة وعذوبة الصوت، وقد توّجها القدر بقدر من الجمال الكامن في بياض بشرتها وعيونها الغزلان الجذابة والشعر لا هو بالطويل أو القصير، لكنه أسود لامع ينسجم مع بشرتها تمامًا، كانت كل هذه المقومات سببًا في تردد الكثير ممن يطلبون التقدم لخِطبتها، فيعتذر والدها لصِغَر سنها وأنها ستكمل دراستها، وما كانت تبالي بذلك ولا حتى تنتبه حتى ذلك اليوم.

خرجت إلى شرفة غرفتها لتجد نافذة غرفة في المبنى المقابل لها مفتوحة على مصرعيها مما أتاح لها رؤية كل محتويات الغرفة بوضوح سرير ودولاب صغير ومكتب وثلاثة كراسي خشبية، ولكن كانت المفاجأة حين وقع نظرها تجاه الحائط لتجدها وقد رسم عليها صورة لفتاة، حين أمعنت النظر أصابها الذهول؛ كانت رسمة لصورتها هي.

نعم! «دي صورتي، صورتي أنا!».

هكذا قالت في نفسها عندما رأت الصورة، وكان الرسم بالغ الوضوح وشديد الشبه بها في كل التفاصيل، شعرها وجهها كأن مَن رسمها يعرف كل ملامحها عن قرب، فأخذتها المفاجأة، وأخذت تدقق النظر داخل الغرفة، فقد كان الحائط فارغًا تمامًا إلا من صورتها التي تدل على أن من رسمها فنان ذو حس راقٍ وموهبة فذّة، وهي على تلك الحالة فجأة ظهر شاب مبتسم ابتسامة يملؤها الصفاء، بلونه الخمري ووجهه المستدير كوجه الأطفال وشعره الأسود الكثيف، محاولًا لفت نظرها، عندما رأته تملّكها الخجل واستدارت بسرعة ودخلت غرفتها وأغلقت باب شرفتها محدثًا دويًا مسموعًا، لكنها لم تستطع النوم ذلك اليوم؛ تساؤلات تهاجم عقلها بشدة، كيف رسم صورتها بهذه البراعة؟! ولماذا رسمها هي بالذات؟! ومن

يكون ذلك الرسّام؟ وكيف له أن يتجرأ على ذلك دون أن يخشى أن يرى تلك الرسمة أحد من الجيران أو حتى والدها أو والدتها أو أحد إخوتها؟ وكيف له أن يحفظ ملامحها بتلك الدقة المتناهية؟!

لم تجد إجابة واحدة لأي سؤال، فعذبها التفكير وشرد عنها النوم طوال الليل، منذ ذلك اليوم وهي تراقب تلك النافذة وهذه الغرفة، بل وقد تعلّق قلبها بذاك المجهول الذي لا يمكن أن يكون رسمها إلا لاهتمامه بها، ولم يكن تعلّقها من طرف واحد، بل كان أيضًا متعلّقًا بها إلى حد الولهِ من أكثر من عامين، يراقبها بل ويتبعها أيضًا حتى في خروجها من المنزل دون أن يزعجها، ولم يحاول يومًا لفت انتباهها، فقد أحبها منذ اللحظة الأولى

التي رآها فيها، عندما كانت تنشر الملابس في الشرفة المقابلة للشقة التي كان يستأجر فيها غرفة وباقي الغرف يسكنها أصدقاؤه وزملاء العمل كمهندسين في إحدى الشركات ومغتربين عن مواطنهم الأصلية، فقد جاء إلى تلك المدينة منقولًا للعمل.

حين رآها أحس أن القدر ساقه إلى فتاة أحلامه التي هزت كل كيانه من أول نظرة، وصارت غربته الموحشة دون أهله، والوحدة التي طالما اشتكى إياها إلى أصدقائه، ما عاد يشعر بشيء من ذلك، وصارت تلك المدينة مدينة الأحلام له، وبدأ يحلم أن تشاركه أحلامه وأيامه ولياليه، وبعد طول انتظار يبدو أن بعض ما تمناه بدأ يتحقق، فقد تكررت رؤيته لها وهي تنظر داخل الغرفة، وكانت فرصة سانحة لكي تتقابل العيون حتى ولو مصادفة، ولكنها ما عادت تجري حين تراه كأنها تنتظره، تقف أمامه تبادله الابتسامة، يا الله على ابتسامتها الجذابة البريئة التي تغطي على خيوط الشمس الفضية، وتحكي عن رضا كأننا

تربينا معًا، ما أحسست لحظة أني لا أعرف تلك العيون، الابتسامة براءة الوجه المشرق بفرحة الأطفال، حين يحصلون على شيء يريدونه، يومًا بعد يوم تعددت، بل زادت المرات التي وقف فيها مجدي ونهال يتبادلان النظرات والثواني صارت دقائق حتى صار كل منهما يقضي أغلب وقته في الغرفة، فتأخذ هي كتابًا أو رواية لتجلس في الشرفة متحججة بقراءتها، ومنذ ثلاثة أشهر لم تتغير الرواية، فهي لم تقرأ حرفًا واحدًا، بل دائمة النظر نحو غرفة أحلامها.

ذات صباح وعلى غير العادة وجدت نافذة الغرفة مغلقة فانزعجت، لكنها وضعت احتمالات مسكنًا لقلقها، وظلت طوال اليوم تراقب تلك النافذة، ولكن انقضى اليوم، ولم ينفتح الشباك، ولم تذق الطعام في يومها، وظهر عليها الحزن، وكل من يسألها تجيب «عندي صداع»، ولا تزيد حرفًا ونامت هذه الليلة على أمل يوم جديد تنفتح فيه نافذة الأحلام، فترى صورتها وتراه فيهدأ بالها، ويستقر قلبها في مكانه، مر ثلاثون يومًا ولم تنفتح النافذة ولم يظهر مجدي، وكل يوم يمر تذبل فيه وقد ظهر عليها الشحوب، وانطفأ بريق وجهها وفارقتها الابتسامة المعروفة عنها، ولا إجابة واضحة أمام أهلها عن سوء حالتها، فلجأت أمها إلى المعتقدات المتوارثة من أنها محسودة «أكيد حد نظرها»،وطبعًا هلكتها بالبخور والرقيات والوصفات، مثال أن تقرأ على الماء وترشه في وجهها أو تسقيه لها، وصارت تأخذها عند خالاتها وجدتها نوعًا من التغيير والتأثير فيها لتغيير حالها، ولكن كل الوصفات لم تفلح، ولم يكتشف أحد أنه العشق، بل لم ولن يتوقع أحد أن تلك الصغيرة المدللة قد مستها نار الشوق وأن قلبها اكتوى بالهجر، وإحساسها أن مجدي كان يخدعها وأنها وقعت في شرك عشق من طرف واحد، بجانب إحساسها بالندم على كل ابتسامة

أو نظرة تبادلتها معه وهو لا يستحقها، كل هذا يدور في عقلها، أمّا قلبها عاشق لذي العيون السود وذاك الوجه الذي ينم عن رجولة وشهامة، فلا يمكن أن

تحمل تلك الأعين غدرًا، ولكن هل خدعها المظهر إلى هذا الحد، كل هذا وأمها تقول: إنها محسودة، أكيد عين وأصابتها والكل يؤيدها.

ذات صباح، وعلى فجأة ابتهجت أسارير نهال، وكاد قلبها أن ينخلع من صدرها حين وجدت نافذة الغرفة مفتوحة، في لحظة تبدل حالها فرحًا، كادت أن تفتح باب شقتها، وتجري إلى المبنى المقابل، وتقتحم الشقة لتراه، فقط لتراه، لكن سرعان ما تبخرت فرحتها وطاح قلبها في الهم، فالغرفة قد سكنها أشخاص جدد، بل الشقة بأكملها، أسرة! أطفال! إذن قد غادر، نعم، غادر، دون كلمة وداع، ترك صورتي، تركني، يا ليتني ما رأيته، كاد الندم أن يقتلها، ولم تكن تعرف أنه انتظرها عامين لكي يحظى بابتسامتها التي ما كان يراها إلا حلمًا، ربما لو علمت لهدأ صراخ عقلها وحسرتها، فهي تظن أنه رآها حين رأته أو قبل بقليل أو بالمصادفة.

عندما رأت الشقة وقد سكنها من سكنها أيقنت أنه كان حلمًا كصورتها التي سيمحوها دهان الحوائط الجديد.

- أمي، مش عاوزين نتأخر أكتر من كدا، فات أكتر من شهر ونص من يوم ما رجعت، أمي، ليه مش مدياني عقاد نافع؟ هنعمل إيه؟
- يا ولدي، أسعد يوم عندي إني أفرح بيك وأشوفك متهني.

قام فرحًا وقَبَّل يدها وجبينها قائلًا:

- يعني أنتِ كلمتِ أبويا؟
- أيوا يا ابني، وأبوك اتفق مع عمك حسن أنه أول الشهر الجاي هيكونوا جهّزوا حالهم ويسافروا معاك، وربنا يا ابني يفرح قلبك يا حبيبي، وأنا كمان وأختك ثناء هنخبز لك ونجهز لك شوية حاجات كتير تاخدها زيارة لعروستك.

كاد أن يحمل أمه على كتفه من فرط سعادته، وتهلل وجهه وهو يردد:

ربنا ما يحرمني منك أنتِ وأبويا، ويطول عمرك يا ست الحبايب.

واتجه مسرعًا إلى غرفته لا تسعه الأرض التي يمشي عليها، ليجلس على مكتبه بشوق باحثًا في أحد الأدراج على أجندة سوداء، وفتحها بشوق، ليبحث بين أوراقها، حتى وجد الصورة، نعم، صورتها التي أخذها من أستديو التصوير خلسة دون أن يعرف أحد، عندما علم أن نهال لها صور في الأستديو مطلوبة للشهادة الثانوية عندما كان يتبعها في كل طريق دون أن تدري، حينها أخذ صورة من ثماني صور كان يضعها صاحب الأستديو على المكتب في انتظار أن تأتي صاحبة الصور لأخذها ورسمها على حائط الغرفة، واليوم أمسك بالصورة وأخذ يقبّلها قائلًا:

- وأخيرًا يا ملكة أحلامي سأراكِ من قريب، سأسمع صوتك، ولو حالفني الحظ لكان أكثر من ذلك، متى يأتي أول



مَن خان جدتي

- صباح الخير يا تيتا.
- صباح الخير يا غادة.
- ما لك كدا يا تيتا من امبارح زعلانة؟
- لا، مفيش حاجة.
- يا تيتا...

ثم أقبلت على جدتها فأمسكت يدها وقبلتها وارتمت في حضنها كعادتها لتضحك، ولكن الجدة لم ترفع حتى يدها لتربت على ظهر حفيدتها كما تفعل كل مرة مما أثار دهشة غادة،

وجعلها تكرر سؤالها في إصرار:

- لا يا تيتا، أنتِ من امبارح وأنا شايفاكِ بتبكي.
- بس يا بت، روحي اتوضي وصلي بلاش رغي فاضي.

شعرت غادة بالخجل من الطريقة التي حدثتها بها جدتها فتحركت من فورها ناحية الحمام تاركة جدتها تناجي الله مع مسبحتها.

دق جَرْس الباب ففتحت غادة لتجد خالها الكبير ومعه ابنه، سلمت عليهما وجلسا يتبادلان الحديث مع الجدة، ثم عاود الجرس مرة أخرى ومرة ثالثة حتى اجتمع شمل الثلاثة أولاد أبنائها ومعهم أبنائهم (أحفادها) كعادتهم كل يوم جُمُعة بعد الصلاة يجتمعون عند أمهم، ويتناولون طعام الغداء، وينهلون من بركة أمهم ودعواتها وسط الضحكات وتبادل الحكايات، وكانت تشاركهم «آلام جدة غادة» في كل هذا المرح، ما عدا اليوم وهي واجمة لا تتحدث إلا إذا وُجِّه إليها الكلام وترد بالحرف الواحد، فاستغرب الجميع، وسألوها:

- في حاجة يا ست الكل؟! ما لك يا حاجة؟

وهي تجيب إجابة واحدة لا تتغير:

- مافيش، ولا حاجة.

فنظروا إلى غادة:

- مال جدتك يا غادة؟ حصل إيه؟ مين زعلها؟
- ماعرفش هي من امبارح وهي باكية وحزينة ومش راضية تقول لي في إيه.

فانفزع الأولاد، وأعادوا أسئلتهم بإلحاح لم يفلح أن يزحزح إصرار أمهم على الكتمان، ولم تهتم مثل كل جمعة أن تعزمهم على طعام الغداء، بل صارت تسبّح دون اهتمام بهم ولا حفاوة مما جعل كل واحد منهم يتوجس خيفة أن يكون من أغضب أمه دون قصد طبعًا،

ولكن دون جدوى، لم يصلوا إلى تفسير مُقنِع، فهمّوا بالانصراف سائلين غادة:

- هي أمك هتيجي النهار دا؟
- أيوا يا خال، ماما زمانها في السكة وكمان خالتي سميرة وخالتي حسنية زي كل جمعة، مش أنتم قاعدين؟ يبقى هتقابلوهم زي كل مرة، نهض الخال الأكبر قائلًا:
- لا، أنا هامشي، وأبقى آجي آخر النهار.

وتبعه أخواه وأولادهما واتفق الكل على الرجوع آخر النهار لعل حال أمهم يتحسن خصوصًا أن بناتها لا بد وأن يخرجوها من هذه الحالة.

استأذنوا جميعًا وقبلوا أيدي أمهم وهي بدورها احتضنتهم بجميل الأدعية المباركة، خرجوا جميعًا إلا الابن الأصغر، فاقترب من غادة وهمس في أذنها:

- أنتِ ماتعرفيش جدتك ما لها؟
- والله يا خالي أنا سمعتها امبارِح بتبكي وبتقول «إخص عليك يا خاين العيش والملح والعِشرة»، وكانت متأثرة قوي.

دهش خالها وهو يسمع ذلك الكلام، ودار عقله «يا ترى مين د اللي خان العِشرة؟!» ثم كرر هامسًا لغادة:

- لما تيجي أمك ضروري تفهميها وتخليها تعرف مين اللي زعّل جدتك.

وقد وصّاها بذلك لأن أم غادة أقرب البنات إلى قلب الأم، بل وموضع سرّها.

فردت غادة فرحة بمكانة أمها التي يعرفها الجميع:

- حاضر يا خالي حاضر.

وبعد وقت لا بالكثير ولا بالقليل جاءت أم غادة، ثم خالاتها تباعًا، وكل واحدة تدخل ينتابها دهشة من مقابلة الأم الفاترة الواجمة التي لا ترحاب فيها، والكل يسأل غادة ما بها جدتك؟

ويكون ردها كما قالت لخيلانها:

- ماعرفش هي من امبارح حزينة وزعلانة وكانت بتبكي.

هذه المرة سمعتها جدتها فنهرتها قائلة:

- أنتِ يا بت كل اللي هيجي هتعملي لي زفّة! كانت بتبكي، كانت بتبكي، خدي نايبك صمت، اسكتي.

خجلت غادة من نهر جدتها لها وخاصة أنها مرتبطة بها جدًّا إلى درجة أنها تاركة أمها وأبيها وإخوتها ومقيمة مع جدتها لشدة حبها وتعلقها بها، وكلما أراد أبوها أو أمها أخذها، تمرض فورًا وتسوء صحتها، فتركوها في كنف جدتها ترتع وتلعب منذ كان عمرها خمس سنوات وحتى الآن وهي بنت ثلاث عشرة سنة، أمسكت فوزية (أم غادة) بيدي غادة وقالت:

- معلش، ماتزعليش من تيتا، أنتِ عارفة هي بتحبك قد إيه، بس تعالي قولي لي هي ما لها فيها إيه؟

أعادت غادة على مسامع أمها ما قالته لخالها الأصغر من أن جدتها كانت تبكي وتقول «خاين العِشرة والعيش والملح» فاستغربت الأم، وصمتت قليلًا، قبل أن تسأل بنتها:

- مين جه عندكم امبارح؟
- ولا حد خالص.

زاد اندهاش الأم، وقررت أن تسأل أمها.

جلس الثلاث بنات حول أمهن بتودد ورغبة في مواساتها ومعرفة مصابها، فاقتربت فوزية، فهي بنتها الصغرى والمقربة أكثر من إخوتها إلى قلب أمها وأمسكت بيد أمها وقَبَّلتها، وبصوت تملؤه الشفقة سألتها:

- بالله عليك يا أمي لتقولي ما لك.

مصمصت الأم شفتيها قائلة:

- يا بنتي ليه بس تحلفيني؟ أهو صدري مخنوق وخلاص على الدنيا اللي مابقاش فيها أمان، ليه بس الغدر؟

واغرورقت عيناها بالدموع التي غالبت نفسها كي لا تنزل، واحتقن صوتها بالبكاء، فتأثر بناتها وحفيدتها وكادوا جميعًا يبكون لبكاء أمهن، وقاموا يحاوطونها بأذرع خائفة ونظرات عطف والحَيرة تكاد تمزق عقولهن، من ذا الذي أوصل أمهم الرحيمة الطيبة مَضرِب الأمثال في العائلة والجيران وكل من يعرفها إلى هذه الحالة؟ إنها صاحبة الوجه السمح والدعاء المستجاب والقلب النقي الطاهر، السيدة التي طوال عمرها الذي قارب الثمانين لم تؤذِ أحدًا لا بقول ولا بفعل، من جرؤ أن يغدر بها؟ أو حتى يوريها خيانة أو موقفًا فيه خسّة، ووسط حيرتهم ومع إلحاحهم على أن تحكي ما بداخلها، استرسلت الأم قائلة:

- بعدما ربيته ليا أكتر من تسع سنين وبأكله بإيدي وأشربه وكل الأكل ليه نصيب فيه زيكم وزي ولادكم، كأنه ابني، خانني وسرقني وقدام عيني!

صدرت شهقة عالية من فوزية وقالت سميرة:

- يا ساتر يا رب إيه دا؟!

وفزعت حسنية قائلة:

مين دا اللي ماطمرش فيه العيش والملح؟ ليه كدا؟ دا الدنيا بقت وحشة قوي.

وتبادلوا كلمات «ماتزعليش يا أمي، خلاص أجرك على الله»، حتى سألت واحدة منهنَّ:

- مين دا؟

وسط اللغط السائد بينهنَّ شق صوت الأم قاطعًا عليهنَّ التنبؤات والاستغراب لتقول:

- القط بتاعي اللي مربياه بقالي سنين امبارح وأنا بطبخ وغاسلة اللحمة خطف حتة لحمة وجري قدامي، وأنا بديله نصيبه زيكم تمام، شوفوا ليا كام كام سنة أربي فيه وبعدين يخونني!

وتحشرج صوتها بالبكاء المليء بالحسرة بينما ساد صمت رهيب وتسمروا ناظرين إلى بعضهم وإلى أمهم التي تعيش مأساة قطها الخائن.



أكلة سمك

«ياه، كانت في التاسعة عشرة حين تزوجتها، ما زلت أتخيلها، رأيتها أول مرة في شارع البحر الطويل، حين كنت سأصدمها بدراجتي دون قصد حتى أنها اصطدمت بجدار منزل لكي تتفادى السقوط على الأرض، تخيلت أنها ستنهال عليَّ بوابل من الشتائم واللعنات وأن الضجيج سيملأ الشارع، وسيعرف القاصي والداني أنني متهور أمضي في طريقي دون أن ألتفت يمينًا أو يسارًا وأصدم الناس، وسيُسمعني بعض منهم النصيحة بأن عليّ أن أمشي في هوادة وأن في التأني السلامة، وكم كانت دهشتي حين تمالكت توازنها وأكملت طريقها

دون أن تنبس بكلمة واحدة غير أنها رمقتني بنظرة عاتبة يملؤها الفزع، وقفت مدهوشًا لا أكاد أصدق عينيّ وأنا أنظر إليها وهي تقطع الشارع من غير تمهل دون أن تلتفت وضفيرتها تتمايل فوق ظهرها، كانت جميلة، شدتني بصمتها الذي ينم عن حسن أدبها وحيائها، وأحسست أن نظرتها مغروسة في قلبي، وقررت أن أمضي خلف هذه الحسناء المهذبة، ولن أدخر وسعًا لأحظى بها تشاركني حياتي، فكل ما رأيته فيها جعلني أراها فتاة الأحلام لأي شاب مثلي، والآن أنا وحدي أدفع ثمن اختياري، فقد خدعتني العيون الجذابة

والرموش الكثيفة والحياء والصمت الذي تفجر، فصار بركانًا من النكد؛ خلافات مستمرة على المعيشة وراتبي وزيادة دخلنا ومتطلبات الحياة، وكل ما يهمها أن نعيش مثل فلانة أو فلان، وأن أبحث عن عمل إضافي لتحسين دخلنا، وقد قاومت كثيرًا لأحظى بابتسامة حانية تعوضني عن هذا الجفاء وأن أجد في جمالها ثمنًا عادلًا لأوامرها المتكررة، كنت أبحث عن أجمل ما في أنوثتها لأعيش معها السعادة التي كنت أحلم بها، ولكنها أرهقتني وما أقسى أن تشنق أحلام الإنسان على أعتاب من يحب».

أحس بالسيارة وقد هدأت سرعتها، وانحرفت يمينًا، فانقطع حبل الذكريات، وتوقفت أفكاره، توقفت سيارة الأجرة، ونزل منها سعد أمام العمارة التي يسكن فيها، رفع عينيه ناظرًا إلى الطابق الثالث ليجد زوجته قد فتحت جزءًا من النافذة ناظرة إليه كعادتها، عندما تسمع سيارة تتوقف، وبالذات في هذا الوقت الذي هو ميعاد رجوع زوجها من عمله، فتصادف أغلب الأوقات أن تراه وهو ينزل من سيارة الأجرة وتتفحص ما بيده من مشتريات، كأكياس الفاكهة أو بعض أنواع الطعام أو البطيخ الذي يكون واضحًا تمامًا في يديه، وعلى حسب ما يحمله تكون النظرة التي تلقي بها إليه، فإذا هي راضية عما يحمل، تبعث إليه بنظرة راضية محملة على شفتيها بابتسامة عريضة، وإلا فالعبوس الذي يوقف الدماء في عروقه، ويظل يتمتم بالسخط عليها حتى يصل إليها، فيبادلها العبوس بلفظ أو لفظين من التوبيخ من باب «خذوهم بالصوت لَيغلبوكم»، فيحجمها قبل أن تفتح فمها عليه بأي سؤال.

وفي هذا اليوم كان نصيبه من النظرات حملقة عيونها فيه، وكشرت عن أنيابها، وأغلقت «الشيش» بصوت يسمعه من يسكن آخر الشارع، ولم يُفاجَأ سعد، فهو يتوقع ذلك وأكثر، فاليوم جاء بأكثر شيء تكرهه هي، ولا تخفى عليه أبدًا ردة فعلها، بل أصبح لا يبالي بها ما دام هو يحبه، إنه السمك، أكثر طعام يعشقه سعد، ويستطيع أن يأكله طوال اليوم وطوال الأسبوع، بل وطوال الشهر دون أن يمل، أبدًا أبدًا، ولكن زوجته أكثر ما تكرهه من الطعام السمك، ليس هذا فحسب ولكن توضيب الأسماك وتجهيزها دائمًا ليس بالشيء السهل أبدًا، فهي مشقة و «زفارة» على حد قولها تملأ المكان، فالوصول إلى أكلة سمك فاخرة يحتاج الأمر إلى نهار بطوله لتنظيفه وتجهيزه، وفي النهاية هي لا تهوى أكله.

كل هذا يعلمه سعد حق العلم، ولكنه لا يبالي «وأهي خناقة تفوت ولا حد يموت»، ولكي يخفف من جدية الموقف كان يساعدها في تنظيف السمك وتحضيره، وهو شيء من هواياته أن يساعد في طهي ما يحب من طعام لياكل بمزاج عالٍ.

حاسب سعد سائق سيارة الأجرة وانطلق صاعدًا السُلَّم وهو يلعن اليوم الذي تزوج فيه هذه المرأة التي تنكّد عليه عيشته بمجرد ألا يعجبها شيء ما، وأخذ يُحدِّث نفسه «يعني هي مابتحبش السمك تقوم تزغر لي كدا وترزع الشباك! والله نكدت عليا فرحتي بشوية السمك الحلوين اللي أنا جايبهم، ست فقر، طب أنا باحب السمك، سبحان الله عليها، والله لو اتكلمت لأخلي يومها مش معدّي».

وصل إلى باب شقته، فانقطع حديثه مع نفسه، وركل الباب بقدمه مغتاظًا، ففتحت زوجته وهي على حالها، العبوس والوجه الجامد، جاهزة للانقضاض في أية لحظة، فكررت على مسامعه «موال» السمك المعتاد قائلة:

- يا سعد، لو عاوز تاكل سمك هات كيلو على قدك، هاته واشويه عند أي حد، ليه تجيب عشرة كيلو وأفضل أنضف والبيت كله يتبهدل؟ السمك متعب يا سعد، أنا مش عارفة بتحبه على إيه؟ دا حتى زفر، مش كنت جبت فراخ أحسن؟

قالتها وضربت يدها اليمنى فوق اليسرى، ومصمصت شفتيها والغضب يشع من عينيها، زفر سعد زفرة حارقة وقاطعها في ضيق:

- هو مافيش مرة أجيب فيها سمك إلا ونفس الموّال؟ قلت لك ألف مرة مابحبش السمك اللي في المطاعم، أنا باشتريه من الصيادين، بيكون أحسن ولسة طالع من البحر، وليا كام سنة باقول لك مش ممكن أشتري سمك إلا بكمية كبيرة لأني باحبه وبلاقيها فرصة لما ألاقي صياد

معاه سمك كويس، فباخد كمية كويسة ودا بيحصل يا ستّي كل شهر مرة واحدة، وأحيانًا مش بالاقي سمك فترة، كفاية بقى، خلي عندك دم، أنا لسه راجع من الشغل وتعبان.

قالها وأحس أنه يواجه إعصارًا، ظلت هي واقفة تنظر إليه بعينيها مفتعلة الفَهم والتعالي

وهي تمصمص شفتيها، وأشاحت بذراعها قائلة:

- أنت مفيش فايدة من الكلام معاك.

قالتها دون اهتمام وعصبية وضيق، واتجه هو إلى الحمام ليغير ملابسه ويستعد لتجهيز وجبة شهية من السمك المقلي اللذيذ، وفجأة نادته زوجته بصوت حاد:

- تعالى قبل ما تغير هدومك، دخّل السمك من برا الباب أنا مش هاقدر أشيله أبدًا.

فانتبه سعد ووقف مكانه يحاول جاهدًا إخراج الكلام من حلقه، حيث إن الجملة التي سمعها من زوجته غريبة، فهو لم يترك الكيس المملوء بالسمك خارج الباب،

ومعنى كلامها أنه لم يدخل بالكيس أصلًا، وبعد محاولة شاقة لتعليل الموقف تحرك ببطء ليجلس على أول مقعد يقابله في الصالة، قائلًا:

- لا حول ولا قوة إلا بالله!

فجلست زوجته على المقعَد المقابل له صامتة تنظر إليه لا تقدر على الكلام مخافة رد فعله وهو على هذه الحالة، شملت وجه سعد مسحة من الحزن الثقيل، وابتسم ابتسامة شاحبة فيها الكثير من السخرية قائلًا:

- يااااه! يبقى نسيت السمك فوق شبكة التاكسي وطلعت بس بالزيت!



لست أنا

صديقتي المقربة نقية كشُعاع الشمس تنشر الدفء على روحي كلما التقينا منذ الطفولة لم نفترق في المدرسة، وكنا جيران في السكن أيضًا، كانت طفلة مشاكسة من الصعب أن ترضي أحدًا بسهولة، وكنت أنا الطفلة هادئة الطباع التي تسعد بمراضاة كل من حولها،

فصرنا بشخصيتنا المختلفة نكمل بعضنا بعضًا، لم نتنافر يومًا، بل تجاذبنا.

لم يكن بيني وبينها أي نوع من الغَيرة أو الحسد أو أي شيء يمكن أن يكون بين فتاتين كل منهما تتصف برموز من الجمال البارع وروعة الصبا، بل كنت لا أستطيب الحياة من غيرها، وهي أيضًا تشاركني كل ما في عالمها من حب ووفاء.

كبرنا معًا حتى في الجامعة معًا وفي كلية واحدة، نتكلم لغة واحدة وإيماننا بكل شيء واحد،

ما اختلفنا يومًا على شيء، بيننا توافق تام في كل الأمور كأننا توأمان، ودائمًا كنت أشكر الله أن وهب لي هذه الصديقة توأم روحي، وما كنا لنخفي سرًّا قط لا تعرفه هي ولا أعرفه أنا، حتى شاء القدر لي أن يدخل حياتي، وبلا ترتيب مني سرٌّ احتفظت به، لا لأني خنت عهدي مع صديقة عمري، ولكن لأني لم أكن أعلم هل ما أشعر به حقيقي أم وهم؟

فقد رأيته أول مرة حين سكنوا العمارة التي أمامنا هو ووالدته وإخوته، ولم أرَ والده ربما يكون مُتوفيًا وربما في سفر بعيد، ولكن منذ أن سكنوا تلك الشقة لم أرَ والده، عرفت من أمي التي صارت صديقة لأمه أنه في السنة النهائية لكلية

الشرطة وأن اسمه وليد، ومن عائلة معروفة ولها صيت، ثم تأكد ظني لما عرفت أن والده مُتوفٍ منذ عدة سنوات.

عاطفة جديدة اجتاحت كياني، ورغم أن هذا االإحساس الذي توغل داخلي ليجعلني أسعد مما كنت، ولكنني شعرت بالوحدة لأني أعيش هذا الإحساس وحدي ولم أخبر به صديقتي وتوأم روحي، ولا أدري لماذا لا أستطيع أن أخبرها، لا أدري هل كان علي أن آخذ رأيها، قبل أن يخفق قلبي؟ شعرت أنني أدخل حياة جديدة بحلوها ومرها، بآلامها وآمالها، كل هذا وحدي دون أن تشاركني رفيقة عمري.

ارتمت على فراشها منهكةً من التفكير وأغمضت عينيها وراحت تتأمل كيف لها أن تصارح صديقتها بمشاعرها الجديدة، ولعلها واهمة، ولعل وليد لا يبادلها المشاعر نفسها، فتكون بذلك ارتبكت حماقة أن تفصح عن شيء بداخلها وحدها ومن طرفها هي فقط، ظلت مغمضة العينين تفكر حتى غالبها النعاس، فغطت في نوم عميق.

مرت الأيام وقد قررت سماح ألا تقول لصديقة عمرها ليلى أي شيء عن حبها حتى تتأكد من مشاعرها، أو أن يهب لها القدر أي علامة على أن وليد يبادلها المشاعر نفسها.

تخرج وليد بتفوق في كلية الشرطة، وقد أقامت والدته له احتفالًا دعت فيه أمي وجميع الجيران ومنهم أم ليلى، وسنحت لي الفرصة أن أدخل بيت وليد مع أمي وليلى وأم ليلى

وبعض من الجارات المدعوات، وكان هناك الكثير من أقارب وليد، أعمامه وعماته وخالاته والكثير من الفتيات الجميلات من أقاربهن وكنت أراه يتبادل مع الجميع

المجاملات اللطيفة دون أن يميز أحدًا على أحد، حتى إن مازحته إحدى الفتيات كان يرد باحترام مجاملًا إياها في خفة دم محببة، حتى جاء دور أمي لتبارك له وبالتالي رد عليها بالتحية الخاصة لأنها صديقة أمه، وألقى علينا السلام، أقصد أنا وليلى، حيث كنا نجلس بجوار بعضنا البعض، فرددت أنا، ولم ترد ليلى، ولكنها نظرت إليه مبتسمة دون أن تعيره اهتمامًا، أما أنا، فما أرخيت عيني عنه لحظة واحدة حتى إنه يخيل إليّ أن عينيه تشرقان بشعاع عجيب ووجهه المريح كلما ابتسم لأحد الموجودين، وبدت أنفاسي منتظمة أحيانًا ومتلاحقة ولاهثة أحيانًا، وفي الوقت نفسه كأنني أحلم فلأول مرة أراه من قرب

وقد احتضنتني أمه، فشعرت بسعادة غامرة، ولم أشعر إلا وأمي تهزني برفق قائلة:

- يلّا يا سماح.

وقفنا ومعنا ليلى وأمها، والغريب أن أم وليد جاءت تودعنا، فحين رآها وليد أسرع إلينا يودعنا أيضًا، وشكرنا على الحضور، أيكون انتبه إليَّ؟ أو أنه ذو أخلاق دمثة؟ وهذا الأقرب إلى الحقيقة، ولكن من يدري!

منذ ذلك اليوم ولم يفارق وليد مخيلتي، في صحوي وفي منامي، أحمل سري وحدي فقد نجحت أن أخفي مشاعري عن الجميع، حتى صديقتي وأنا أراقبه سرًّا. مر عامان وأنا أراقب كل أخباره من أمي تارة ومن الشرفة تارة أخرى، وقد علمت أنه انتقل

للعمل في إحدى القرى كأول تعيين له ظابطًا حديث التخرج، أما أنا وليلى، فهي لنا السنة النهائية، تخرجنا وفرح بنا الجميع، وحققنا حلمنا في التفوق وأصبح علينا أن نختار مجال العمل إن أمكن ذلك.

استيقظت هذا اليوم على نحيب أمي وأبي يحاول تهدئتها، خرجت من غرفتي مسرعة، لأتبين ماذا حدث لأجد أمي تجهز حقيبة ملابسها، وعندما رأتني علا صوتها بالبكاء:

جدك مات يا سماح، أبويا مات!

وكان الخبر صاعقًا لي، فأنا أحب جدي لأمي كثيرًا، كان رجلًا طيب القلب، أكملت أمي:

- يلّا يا سماح جهزي شنطتك بسرعة، هنسافر البلد حالًا.

وكان موطن أمي في أقاصي الصعيد، بيننا وبينه أكثر من عشر ساعات نقضيها في القطار.

ذرفت الدموع من عيون سماح وهي تلملم أغراضها تأهبًا للسفر مع والدتها للعزاء في بلدتها البعيدة، وقد مر أمام عينيها في لمحة كل الذكريات مع جدها وحاولت أن تتمالك فلم تستطع حتى نادت عليها أمها، وكان والدها قد أحضر سيارة أجرة لتنقلهم الثلاثة إلى محطة القطار.

كل يوم كانت تتصل بها ليلى تواسيها مرة، ومرة أخرى تقول لها: «اشتق إليكِ، متى ستعودين؟»، مر قرابة خمس وثلاثون يومًا وهم في بيت جدها وقد تركهم أبوها من بعد اليوم السابع للعودة إلى البيت وإخوتها وارتباطه بالعمل، ولكن أمها لا تستطيع العودة قبل شهرين على الأقل، لتجلس في بيت المرحوم -بإذن الله- أبيها مع أمها وأخواتها،

وهي عادات وتقاليد لا يمكن التخلي عنها.

دق جرس الهاتف:

- ليلى!
- إزيك يا سماح، إيه أنتِ اتأخرتِ قوي، إمتى هتيجي؟
- والله يا ليلى مش عارفة يمكن الأسبوع الجاي.
- أنا عارفة إن الوقت مش مناسب بس في حاجة عاوزة أقول لك عليها مش هاقدر أخبي عليكِ.
- قولي يا ليلى.
- في عريس جه لبابا وطلب إيدي.

بفرح شديد ردت سماح:

- والله يا حبيبتي! مبارك.
- لا استني يا سماح، أنا مش هاقول رأيي إلا لما تيجي أنتِ ونتكلم.
- حبيبتي يا ليلى، يا بنتي ربنا يتمم بخير، لو عاجبك وافقي وأنا لما آجي نتكلم.
- بصراحة هو عاجبني قوي قوي من يوم ما شفته، بس ماكنتش أعرف إنه واخد باله مني.
- آه يا لئيمة، طيب خلاص وافقي لحد ما أرجع لأحسن يطير يا عبيطة.
- طيب يعني ده رأيك يا موحة؟
- أيو طبعًا أنا هاطير من الفرح.
- طيب سلمي لي على طنط وتعالي بقى بسرعة.
- طيب يا روحي ألف ألف مبارك.

بعد أن أغلقت الهاتف، أطلقت سماح شهقة قائلة:

- يااااه! نسيت أسألها عن اسمه، هاتصل بيها، ثم توقفت لحظة قائلة لنفسها:

- ولّا على إيه؟ خليها لما أرجع أعرف كل التفاصيل.

وابتسمت من قلبها فرحة لصديقة عمرها، وأخيرًا عادت سماح وأمها من سفر مرهق طويل، استقبلتها صديقة عمرها وجريا على غرفتها:

- تعالي، تعالي، أحكي لك.
- بس أنا مرهقة، أنام شوية وأفوق.
- لا، مش قادرة أستنى.

تركتها مسرعة إلى شقتها لاهثة من الركض ثم عادت ومعها ورقتين وصندوق صغير، يبدو أنه هدية.

- سماح، عاوزة أقرأ لك جوابين بعتهم لي مع أخوه الصغير وكمان جاب لي، بصي، بصي.

وفتحت الصندوق وإذا به ساعة جميلة مُرَصَّعة بالأحجار الكريمة، قالت سماح:

- الله! جميلة أوي.
- أيوا، قال لي إن مامته جابتها لما راحت الحج من كام سنة وشالتها لعروسته.
- يا سيدي يا سيدي.
- أنا ماكنتش أتخيل إن الحب بسرعة كدا يدخل قلبي.
- يا لولّة أنتِ بتحكي ألف كلمة في الثانية، قولي لي في الأول اسمه إيه؟ وشافك فين؟ وحبك إمتى؟

- حزري فزري؟

وضحكت ضحكة عالية، وضحكت سماح قائلة:

- عروستي.

قالت ليلى بعد ثوانٍ:

- وليد، حضرة الظابط وليد، القمر اللي ساكن قصادي وباحبه، تصوري يا سماح! أتاريه كان واخد باله مني وبيحبني من أول ما سكنوا قدامنا، استني أقرأ لك، أملي في الحياة...

وبدأت ليلى تسترسل في قراءة خطاب وليد دون أن تنتبه إلى الدموع التي ذرفت من أعين سماح، وأخذت تقرأ فَرِحة مهللة.



ورقة امتحان

ما هي إلا لمحة أو بعض لمحة حين رأته يدخل لجنة الامتحان، مراقب ضمن ثلاثة مدرسين يراقبون عليهم اليوم، لم تنتبه إليه لانشغالها بورقة الامتحان والأسئلة والأجوبة، ولكن بعد أن انتهت من الإجابة، وبدأت بالمراجعة كعادة جميع الطلاب، لفت انتباهها صوت خافت يتحدث إلى إحدى الطالبات يكاد يكون همسًا، استطاعت أن تفهم أن هذا الأستاذ يساعد كل من يريد المساعدة من الطالبات، وكانوا في مدرسة للبنات وفي السنة النهائية من المرحلة الثانوية، فجذب انتباهها طيبة القلب التي اتسم بها هذا المراقب وتقديم المساعدة دون لفت انتباه أحد، وفي هدوء تام دون أن يعترض عليه الاثنان من زملائه كأنهم اعتادوا معه ذلك، إنه في أي لجنة يراقب فيها يقدم المساعدة مهما كلفه ذلك من عناء، وراحت ريهام تتفحص ذلك الأستاذ حتى انتبه إليها أنها تنظر إليه طويلًا، فتقدم إليها ظنًا منه أنها تريد المساعدة، فقال لها:

- اسمك إيه؟

قالت بصوت يملؤه الخوف:

- ريهام.
- محتاجة حاجة؟ أو في سؤال مش عارفاه؟
- لا شكرًا، أنا خلصت وباراجع.

قالتها بلهجة سريعة كأنها تريد أن يبعد عنها فورًا.

- طيب، بالتوفيق.
- شكرًا.

ظلت ناظرة إليه كأنها تتفحصه لا تدري لماذا، وحينما انتهى الوقت، وكان عليها تسليم ورقة الإجابة والانصراف، أحست أنها تقتلع أقدامها اقتلاعًا كأنها لا تريد الخروج من هذا الفصل على عكس زميلاتها، يسلمن الأوراق ويركضن، وكانت هي حتى اليوم مثلهم، تتلهف أن ينتهي الوقت، لتخرج وتنسى ما كتبته في الورق، ولكنها اليوم لا تقوى على المغادرة، ولا تعلم لماذا؟ خرجت من لجنة الامتحان ذلك اليوم صامتة، شاردة الذهن، فلم تتحدث مع أقرانها كعادتها، بل انطلقت مباشرة مسرعة على الدرج، ومنه إلى باب المدرسة لطريقها إلى المنزل، لم تمر هذه الليلة على ريهام مرور الكرام، بل كانت تراجع المادة التي ستمتحنها غدًا وهي بنصف تركيز، وما كان ليعيدها إلى الواقع أنه امتحان ولا بد من المذاكرة، إلا صوت أمها:

- عاملة إيه في المذاكرة يا ريهام؟
- الحمد لله يا ماما.
- شدي حيلك عاوزين مجموع كبير.
- دعواتك يا ماما، ربنا يسهل.

في الصباح كانت ريهام تستعد للامتحان، ولكن ليس استعداد كل يوم، اليوم اهتمت بمظهرها وشكلها أكثر من مراجعة دروسها دون وعي منها نوعًا من الاهتمام بشيء داخلها تبصو إليه أو جديد قادم، لكنها تحاول أن تخفي في نفسها هذا الجديد، دخلت المدرسة وليس همها مراجعة المادة مع زميلاتها ولكن البحث عنه، معرفة اسمه، هل سيراقب عليهم مرة أخرى؟

سألت إحدى زميلاتها في شوق وخوف:

- شفتِ الأستاذ اللي راقب علينا امبارح؟ طيب قوي.

- آه والله، بيقولوا إنه من (...) مركز تبع المحافظة يبعد عننا حوالي نص ساعة.
- بجد؟! مين قال لك؟
- عرفت من سعاد، أصله من بلدهم وتعرف المدرسين اللي كان معاه برضو، أصل لجنة المراقبين السنة دي كلهم من (...).
- ياه! بس طيب قوي، يا سلام لو يراقب علينا كل يوم.

ضحكت صديقتها باستهزاء:

- يا شيخة أنتِ بتحلمي.
- على فكرة أنا لو شفته هاشكره.

قالتها ريهام بصوت متردد يحوي لؤمًا مقصودًا.

- نشكره على إيه؟ ما هو ساعد كل البنات، اشمعنى احنا نشكره؟

استاءت ريهام من صديقتها وجزت على أسنانها بغيظ ثم تمالكت نفسها

وبنفس اللؤم ردت عليها:

- يا عبيطة نشكره ونقله يراقب علينا تاني.
- يعني هو بمزاجه يراقب على مين!

ثم أكملت صديقتها:

بصي يا ريهام، أنتِ شكلك مافطرتيش، تعالي نجيب بسكويت أو أي حاجة قبل اللجنة ما تبدأ، أو تعالي...

- همك على بطنك.

وصلوا إلى المصقف المدرسي لتكون الصدمة التي لو رتبتها ريهام ما كانت لتكون بذلك الإتقان، فقد كان يقف هو وزميله وفي أيديهما أكواب شاي ويتبادلان حديثًا مضحكًا، دون مبالاة بمن تروح وتأتي من الفتيات، ارتبكت ريهام وشلتها المفاجأة عن التفكير حتى تصرفت تصرفًا دون تفكير، فقد نظرت إليه قائلة:

- صباح الخير يا أستاذ.
- صباح النور.

رد عليها بذهول لأنها خصته بالسلام دون زميله، ولم تنتبه هي إلى ذلك، فأصبح الموقف محرجًا للغاية، حتى لزميلتها التي تقف بجانبها في صمت مطبق.

شعر بالخجل لأن تصرفها غير طبيعي، ولكنه اعتدل في مواجهة زميله دون أن يجد لغة للحوار، بينما جذبتها صديقتها من يدها قائلة:

- اللجنة هتبتدي.

وسارا دون أن يشتريا أي شيء من المقصف، ولامتها صديقتها على فعلتها السخيفة، فردت ريهام أنها لا تعرف كيف فعلت هذا، ولكنها في قرارة نفسها لم تكن نادمة، بل كانت فرحة أنها رأته، ورد عليها السلام، أخفت ذلك على صديقتها، وانشغلا بالامتحان.

بعد انتهاء وقت اللجنة، خرجت ريهام في نصف الوقت، وكانت من قبل تجري إلى البيت لمذاكرة المادة القادمة، أما اليوم فقد خرجت بعد نصف الوقت لعلّة في نفسها، ولم تهتم بمراجعة ما أنجزته في إجابتها، اجتازت الممر الطويل المطل على

جميع الفصول ببطء شديد مختلسة النظر في كل لجنة تمر عليها، فنهرها مراقب الطابق:

- أنتِ يا بنت! انزلي بسرعة ماتتلكعيش.

ولم تكترث هي لما يقول، هبطت الدرج بالبطء نفسه حتى وصلت إلى الباب الزجاجي المؤدي إلى فناء المدرسة، ولكنها لم تخرج للفناء، بل جلست على تبت الحائط العريضة

بجانب الباب الوحيد لمن يريد الخروج، فهذا أملها الوحيد في أن تراه، ولن يخيب.

مع مرور الدقائق بدأ الدرج يعج بالفتيات وكذلك المكان الذي تقف فيه، وكل زميلاتها حين يروها:

إيه دا! ريهام أنتِ ماروحتيش؟

لترد ريهام بثقة:

- باستناكم.
- طيب يلّا بينا.
- طيب هاستنى منى.

وتأتي منى فتقول لها إنها ستنتظر كوثر وأخريات حتى اجتمع كل الفتيات وما بقيَ لها اسم تتحجج به.

كانت تقف في حَيرة قائلة لنفسها:

- فينك؟ روحت فين؟ مش هامشي غير لما أشوفك.

قررت أن تصعد مرة أخرى حيث اللجان، ولن يعترضها أحد، فالوقت الأصلي قد انتهى، ولم يبقَ أحد في الفصول، وبالفعل تركت زميلاتها صاعدة الدرج بسرعة

في مواجهة زميلاتها والأساتذة في أثناء نزولهم الدرج، ويا لها من مفاجأة، فبعد إصرارها، وجدته أمام أحد الفصول وأمامه بنت منتقبة تتحدث إليه، ولم تشعر بنفسها إلا وهي تتقدم نحوه دون أن تتروى ولا حتى رتبت ما ستقول له، وصلت إليه مرتبكة لاهثة وقالت بسرعة واضحة:

- أستاذ، لو سمحت حضرتك من (...)؟

رد عليها:

- أيوا! في حاجة؟
- لا يا أستاذ، أصلك أطيب شخص مر عليا.

ضحك بطيبة وزهو:

- شكرًا، على إيه بس؟

فردت المنتقبة التي كانت تقف عندما جاءت ريهام:

- الأستاذ محمد من أطيب الناس.

ابتسمت ريهام بفرحة شديدة لأنها عرفت اسمه دون أن تضطر إلى سؤاله،

وقالت:

- أيوا والله، حضرتك يا أستاذ أحسن أستاذ مر علينا.

- لا، كل الأساتذة محترمين أنتم بس مابتاخدوش بالكم.

استرسلت البنت المنتقبة في تكملة حديثها مع الأستاذ محمد وقد كانت تتحدث عن والدها فيما يبدو وأنها من بلد الأستاذ نفسه، تبادلا الحديث وهي تقف مكانها وعيناها ثابتتان على وجهه، وكلما نظر إليها يراها تنظر إليه دون أن ترخي عينيها، حتى بادلها هو الآخر الاهتمام، وصارت عيناه تبتسم إليها، وصار يقابل نظراتها بمثلها، حتى تحرك معتذرًا من الفتاة المنتقبة وقال لكليهما:

- سلام عليكم.

وانصرف وتركهما واقفتين، فاستدارت خلفه دون أن تنطق بكلمة واحدة، ولكنها تباطأت في الخطى مخافة أن يراها خلفه فيكون موقفها سخيفًا غير منطقي.

ما تبقى سوى سبعة أيام وتنتهي من هذا العام بكل ما فيه، أصبحت ريهام كل يوم تتردد قبل اللجنة وبعدها على أي مكان في المدرسة يمكن أن يكون به الأستاذ محمد، صفاء وجهه الخمري الذي يضفي عليه مزيدًا من جاذبية خاصة لم تصادفها من قبل، وإعجابها

بقامته الطويلة وشعره الأسود القصير وطابع الحسن يزين ذقنه، فتلقي عليه السلام بشكل واضح أنه اهتمام مقصود ومدبر له، حتى كان اليوم قبل الأخير وكان هو للمرة الثانية مراقبًا على لجنتها، عندما دخلت لتجده هو وزملائه لم تتردد لحظة في أن تسلم عليه، بل وبالغت في إظهار فرحتها قائلة:

- ياه! النهار دا أحلى يوم، بجد أنا حبيت الأحياء والكيميا قوي عشان دول المادتين اللي حضرتك راقبت علينا فيهم.

وكان كلامها مصدر دهشة لزميلاتها، بل والمدرسين الواقفين نظروا إليها بتعجب واضح

حتى أن أحدهم نهرها قائلًا:

- مكانك لو سمحت! احنا في لجنة امتحان مش في نادي تعارف.

نزلت عليها كلمات المراقب كالصاعقة التي أخمدت فرحتها وأيقظت خجلها المحمل بدموع منعتها من النزول بمعاناة.

وضعت اهتمامها في ورقة الأسئلة والإجابة وحاولت أن تتمالك ما أصابها من إحراج وخجل، وبعد قرابة الربع ساعة هدأت مع تركيزها في ورقها وبدأت بين الحين والآخر تختلس نظرة إليه، لتبعث في قلبها فرحة من جديد، وعزمت أن تنتهي من الإجابة في منتصف الوقت، ولن تخرج إلا آخر الوقت، لتظل تنظر إليه بطرف عينها، ثم تعود تنظر في الورق تشعر بسهام الحب تخترق خلجاتها.

لم تنتبه لحظة لذلك المراقب في الجانب الآخر من الصف الجانبي وهو يراقبها طوال الوقت بحدة من جانب وجهها ناصع البياض وملامحها المرسومة بدقة والعينين الواسعتين وثغرها الذي ينم عن ابتسامة ساحرة كأنه اكتشف أمرها واهتمامها بزميله ومراقبتها له.

أوشك الوقت على الانتهاء وذلك المدرس شغله أمرها بشكل أزعجه حتى إنه دبر حيلة لكي يحطم مساعي تلك الفتاة الجريئة من وجهة نظره فبدأ يتحدث بصوت جهوري كأنه لا يبالي بالفتيات، فسأل زميله قائلًا:

- يا محمد، النهار دا تيجي نروح نتغدى في أي مكان، أنا جعان جدًّا مش هاقدر أصبر لما نوصل البلد.

فرد محمد بسذاجة دون الانتباه مطلقًا إلى الفخ الذي نصبه له زميله:

- لا، أنا هاروح على طول.

وبدوره رد الزميل الرزيل:

- طبعًا يا عم، أكيد المدام عاملة لك أكل محترم ولازم تاكل معاها.

ابتسم محمد بالسذاجة نفسها:

- أنا مابحبش آكل برا البيت.
- هنيالك يا عم وابقى اعزمنا مرة كدا في بيتك.
- يا أخي اتفضل من دلوقتي.

ضحك ضحكة عالية وهو ينظر بطرف عينه إلى التلميذة التي اقفهر وجهها وبان على ملامحها الارتباك وما عادت ترفع عينها من الورق وقد شعر ذلك المؤذي بالانتصار، حين رآها تسلم الورق، وتنصرف مسرعة إلى الخارج واجمة الوجه بخطى ثقيلة كأنها كهلة تتحسس خطاها.



كهف الذكريات

على البحر جلست تراقب أولادها وزوجها بأعين مبتسمة راضية لا تشعر بمن حولها كأن الشاطئ لها وحدها، تضحك كلما رأت زوجها يلقي بابنها الصغير في لجّة الأمواج، ويعود ليلتقطه والولد يقهقه، والمياه تخرج من فيه وأنفه، فيسعل من تأثير ملوحة المياه، ولكنه متلذذ باللعب مع أبيه وأخته وأخيه الأكبر الذي يحاول أن يقلّد أباه في أن يسبح بمفرده دون مساعدة، أما البنت، فكانت تخاف البحر، ولا تنزله إلا بالـ «عوامة»، ودائمًا ما تلتصق بأبيها مخافة أن تغرق، أما الأم، فكانت تنزل معهم أحيانًا، وأحيانًا تكتفي أن تنتظرهم مع الطعام والمناشف على الشاطئ، ولكنها معهم أيضًا بنظرها الذي لا يغيب عنهم لحظة؛ خوفًا وقلقًا أن يصيبهم غدر البحر بغتة كأنها تحرسهم بأعينها، فلا تسمح لأي شيء أن يشغلها عن مراقبتهم أبدًا، فهذا الشهر من كل عام يكون متنفسهم الوحيد بعد عناء العمل والمدارس والروتين اليومي الممل، حتى يحين وقت المصيف، الذي يعدون له العدة من قبله بمدة كافية حتى يكون ترتيب كل شيء على ما يرام، بدءًا باتصالهم بحارس العمارة ومعه المفتاح الخاص بشقتهم لينظفها ويجهزها وهو أيضًا ينتظر حضورهم السنوي بفرحة وترحاب لحسن معاملتهم له واهتمامهم به طوال فترة إقامتهم في الإسكندرية، «عم محمود» رجل طيب وأمين وملتزم، عمل حارسًا على هذه العمارة منذ أن بناها الحاج «صادق»، ثم باع كل شقة لصاحب النصيب ومن يومها وهو حارس هذا العقار وله غرفة في مدخل العمارة، يقطن فيها مع زوجته وابنتيه منذ أن جاء فتى يافع من الصعيد ليبحث عن عمل، وكانت هذه العمارة في مرحلة التشطيب، فأخذه الحاج صادق مستحسنًا أخلاقه وأمانته وأسكنه غرفة خاصة به ثم تزوج وأنجب نعمات وسعاد وهو في نفس عمله، والكل يشهد له بالطيبة واختصار المشاكل وأنه خدوم يساعد كل من يطلب مساعدته، ويحافظ على العمارة كأنها بيته وملكه، حتى أن أغلب سكان العمارة ممن اشتروا شقة للمصيف فقط أعطوه المفاتيح لتكون شقتهم في أمانته، وهو خير من يصون الأمانة ومن حين إلى آخر ينظفها ويفتح النوافذ للتهوية وعندما تجادله هناء

زوجته أنه لا داعي أن يتعب نفسه فأصحاب الشقق يخبروه قبل مجيئهم وعندها يكون تنظيفها في الوقت المناسب، فينهرها بعصبية الرجل الشهم قائلًا:

- يا شيخة اتقي الله.. أنا باخد مهية عشان الشقق دي، يبقى لازم أحلل الفلوس اللي باخدها، والشقق لو فضلت مقفولة ريحتها هتكمكم والفرش هيتهرى والتراب يمسك في الحيطان والأرض هتسود، اشتغلي يا كسلانة وأنتِ ساكتة.

تمصمص هناء شفتيها امتعاضًا على كلامه غير مقتنعة وتكمل مساعدته وهي مغصوبة.

أشارت سلمى إلى زوجها وأولادها ليخرجوا من المياه، ابتسم لها زوجها كأنها تمازحه، فأشارت إليه مرة أخرى، فشعر بأن شيئًا ما تلح به زوجته، فأومأ لها برأسه إيجابًا، وبدأ بجمع أولاده خارجين رغمًا عنهم تلبيةً لرغبة زوجته، اتجهوا حيث الطاولة التي تجلس عليها أمهم تحت الشمسية ليجدوها قد رتبت الطعام وجهزت كل شيء انتظارًا لهم، فتناولوا المناشف واتجهوا فورًا لخلع الـ «مايوهات» على عجل في الحمامات المخصصة لذلك بالقرب من الشاطئ، فهم أيضًا يشعرون بالجوع.

جلست سلمى تدير النظرات هنا وهناك قاطعة للانتظار، كأن اللحظات ثقيلة مملة كأنها تبحث عن عزيز تاه على غفلة منها، وحولها الطاولات لا حصر لها، يلتف حولها عشّاق البحر من الكُسالى وكبار السن أو ممن نزلوا البحر وعادوا والمياه تنضح من رؤسهم حتى الأقدام ملفوفين بمناشفهم كاستراحة قصيرة، ثم لا يقاومون إغراء البحر فيعاودون الكرة مهرولين داخله كأن من ينزل البحر لا يريد الخروج منه، وكل طاولة هي عالم خاص بذاته، ورغم أنها قريبة من الطاولة التي

تليها، كأن لا أحد يرى من بجواره، كل أسرة ترى أفرادها فحسب وتفعل ما يحلو لها، ولا تخلو أي طاولة من العديد من أنواع الطعام والشراب، والباعة الجائلين في كل ناحية يروحون ويعودون حاملي بضائعهم ينادون وسط الصخب والضحكات الرنانة، والجو هادئ وجميل رغم شدة الشمس التي تلفح الوجوه لتكسوها بلون خمري نوعًا من الذكرى لأيام الصيف والبحر تبقى لعدة أشهر ثم تتلاشى.

رجع أحمد والأولاد منطلقين نحو أمهم فرحين، جلسوا حول طاولة الطعام، وبدأ كل واحد يكشف الغطاء عن الطعام الخاص به وهم يضحكون، أما سلمى فكانت تجلس في سكون، أزاحت غطاء الطبق الخاص بها، وبدأت في الأكل، ولكن دون انسجام مع زوجها ولا أولادها، صامتة لا تتفوه بكلمة كأنها تاهت منهم وسط الصخب، وهم يتحدثون أحاديث مضحكة شقية، نظرة واحدة من عين زوجها لها أفهمته أنها مستغرقة في تفكير عميق، فليس الصمت من طبعها، فهي تضفي على كل ما يحيط بها فرحة تطير بها النفوس، وضحكاتها الصافية ونكاتها الهادئة التي تجعل الكل يضحك من قلبه، يشعر أحمد بشيء غريب، فتوقف عن تناول الطعام، وسألها:

- سلمى، ما لك فيه إيه؟

أخذت سلمى نفسًا عميقًا وهي لا تعرف ما ينبغي أن تقول، فابتسمت، ورفعت عينيها لتنظر إليه قائلة:

لا، بس كنت جعانة قوي.

وبسرعة حاولت تغيير مجرى الحديث، فسألت:

- الأكل عجبكم؟
- جميل يا ماما.

أما أحمد فظل ناظرًا إليها دون أن ينبس بكلمة كمن فهم أنها ليس لديها ما تجيب به عن سؤاله وهو ما يؤكد أنه هناك شيء تخفيه سلمى، فهز رأسه في حركة غريبة وقال:

- على كل حال أكيد أنتِ افتكرتِ حاجة خلِيتك سرحانة ومشغولة، بس أنا مش عاوزك تضيعي دقيقة في الجو الجميل دا وأنتِ مش مبسوطة.

لم تدع له فسحة في الكلام، بل قاطعته ببساطة تامة:

أنا بس الجوع جاب لي صداع والشمس كمان، ما انتبهتش إن الشمس فوق راسي.

فابتسم أحمد وقال:

- أومال الشمسية بتعمل إيه؟

اعترضت قائلة:

- كنت منتبهة للعيال وماخدتش بالي إني بعدت شوية من تحت الشمسية، ماتشغلش بالك.

ورجعت تأكل محاولة أن تندمج مع أولادها مبتسمة لهم وتحاول الضحك جاهدة، وبدأت تتبادل معهم الطعام كعادتها لتظهر أمامهم أن الجوع الذي فعل بها ما فعل ليس شيئًا آخر، ومن حين إلى آخر تحدق بنظراتها في الجموع حولها، ولأنها

تعرف زوجها جيدًا، سيظل يراقبها دون ملل حتى يعرف ما يدور بداخلها أو ما يشغل بالها، فاستولت عليها فكرة أن تعود من فورها إلى البيت ويكون ذلك الحل الوحيد الذي يخفيها عن أعين زوجها وتكهناته، فتظاهرت بالإرهاق قائلة:

- أحمد، أنا عاوزة أرجع البيت.

فتطلع أحمد إلى وجهها قائلًا:

- دلوقتي؟! دا الجو جميل، لسه بدري.

فاندفعت تسحب الأغراض وتلملم كل شيء وتعيده في الحقيبة وهي تقول بهدوء:

- معلش، أنا حاسة بإرهاق وتعب، يلّا يا ولاد.

فما كان منه إلا أن استجاب لرغبتها وتحركوا عائدين إلى البيت تاركين وراءهم البحر الواسع وصوت الأمواج المتلاطمة وانتهى الأمر بسلام، واستطاعت سلمى الهروب بنفسها

من مواجهة لا تقوى على الدخول فيها أو حتى الوقوف على أعتابها.

كل مساء بعد العودة من الشاطئ والراحة لبعض الوقت كانوا يذهبون إلى أحد الملاهي أو دور السينما أو أي مكان للترفيه وطبعًا بعد أن يجتمع الكل على هذا المكان، وأن يتفق الأولاد عليه، فيلعبون ويضحكون ويتبادلون الحكايات، لكن هذا المساء جلست سلمى على مقعد شبه مستدير في الصالة أمام التلفاز قاضبة حاجبيها وأمامها فنجان من القهوة

على مائدة غاصت قوائمها القصيرة في سجادة صغيرة بلونها الأزرق، حين بادرها ابنها:

- ماما، أنا النهار دا عاوز أروح الملاهي الكبيرة اللي في المعمورة.

وتبعته أخته مصدقة على كلامه:

- وأنا كمان يا ماما.
- طيب وطوا صوتكم أخوكم نايم.

وكان الصغير يستسلم إلى نوم عميق من فرط إرهاقه اليوم فقد سبح مع والده وقتًا طويلًا.

- روحوا العبوا دلوقتي لحد ما نشوف هنعمل إيه.

وكان أحمد الآخر مستسلمًا إلى النوم وتوًا على صوت أولاده أفاق مناديًا:

- سلمى.
- أيوا يا أحمد.
- معلش عاوز فنجان قهوة وكيك، حاسس إني جعان.
- طيب حالًا.

دهش، عندما خرج إلى الصالة ليتناول قهوته أن سلمى والأولاد ما زالوا بملابس البيت على غير عادتهم في هذا الوقت، فقد كانت توقظه وهي جاهزة للخروج وينتظرونه دقائق

ليحتسي قهوته ويرتدي ملابسه فينطلقون حيث يريدون، فسألها في تعجب:

- أنتم ليه مش لابسين؟

هل تختلق له عذرًا كاذبًا لعدم الخروج؟ تطاحنت الأفكار في رأسها قبل أن ترد:

- مافيش، بس ماليش مزاج للخروج النهار دا، لو عاوز تخرج اخرج أنت.

تردد أحمد محاولًا أن يجد الكلمات المناسبة، ونظر إليها في حيرة:

- من إمتى باخرج لوحدي من غيركم؟ احنا في المصيف مش في مصر، أنتِ متغيرة ليه؟ أنا زعلتك في حاجة؟

بعد لحظة صمت قالت:

- لا، بس لسه حاسة بتعب ومخنوقة.
- خلاص يا حبيبتي ولا يهمك، نسهر الليلة في البيت ونطلب الأكل اللي تحبوه وبلاش خروج.

شكرته سلمى بابتسامة حانية وعادت للنظر إلى التلفاز مرة أخرى في صمت، ترك أحمد الصالة متجهًا إلى غرفة النوم ليكمل قسطًا من الراحة، أما سلمى فقد اعترتها لحظات تفكير قاسية تكاد لا تشعر بما يدور حولها، كالطفل الحائر الذي وجد نفسه في موقف أعلى من مستوى إدراكه، فقد استعاد ذهنًا سنوات ماضية تلمح فيها مقعدها من البامب داخل شرفة غرفتها وهي تنتظره يطل من شرفته ويظلان يتبادلان الابتسامات ويدير لها شريط أغاني عبد الوهاب «علشان الشوك اللي في الورد بحب الورد» ولا تبرح مكانها حتى تسمع صوت أمها وهي تناديها لتناول الطعام، فتنهض منتفضة لاهثة قبل أن تدخل أمها.

كانت بداية قصتها مع بهاء جارهم الطالب في السنة النهائية في كلية الآداب انقضت أيامهما على الوفاء والحب كالنسيم العطر حتى تخرج بهاء وبدأ يبحث عن عمل، أخيرًا التحق بإحدى المدارس الخاصة مدرسًا للغة العربية وشعر بكيانه وثقته بنفسه جعلته يجمع قواه، وطار كالعصفور إلى بيت سلمى ليطلبها للزواج من أبيها، وبلا مقدمات ودون تفاهم أشاح والد سلمى وجهه عن بهاء وقام ناهيًا الحديث دون أن يعيره أي اهتمام، وما قال إلا جملة واحدة:

- يا ابني، أنت لسة بتبدأ حياتك! شد حيلك، احنا ماعندناش بنات للجواز.

فخرج بهاء مقهورًا، واعتكف في منزلها لا يخرج إلا للعمل ويعود فلا يفتح نافذته، ولا يُرى له طيف، وتظل سلمى في الشرفة منتظرة بهاء الذي توارى منزويًا عنها وقد باع قضيتهما من أول جلسة دون محاولة استئناف أو معارضة، وأظلمت الدنيا في عينها جالسة تنظر إلى شرفته مهدمة المشاعر، بعد أن كانت تتصور أنها إنسان سعيد ومحظوظ بالحب.

دار في خاطرها شريط من الأحداث التي كانت تظن أنها قد نستها، وطاحت منها عبر السنين، ولكن في لحظة وحين رأته أمامها هذا الصباح على الشاطئ ووسط كل هذه الجموع وجدها ووجدته، والتقت عيناهما، ولم يستطع أحدهما أن يبدأ بالكلام، فقد عصفت المفاجأة بعقلهما حتى كاد بهاء حين رآها أن يصيح باسمها بأعلى صوته، ولكنه كتم صيحته في اللحظة الأخيرة، وارتجف جسدها حين رأته يقف أمامها، واختلطت أحاسيسها بين الماضي والحاضر في لحظة، اقترب منها فارتعدت خوفًا، وظهر الارتباك عليها، وما كان منها إلا أن قفزت واقفة، وتركت الطاولة، واتجهت ناحية البحر حيث أولادها وزوجها تناديهم متحججة بإحساسها بالجوع، فتراجع فورًا مبتعدًا كي لا يسبب لها أي موقف غير محسوب، ومن

لحظتها وهي مرتبكة شاردة غير مصدقة، ما زال بهاء يتذكر «سبورتنج» وعنوان شقتها التي ورثتها عن أبيها! فقد كانا يلتقيان كل صيف، عندما تأتي مع أسرتها للمصيف في المكان نفسه وعلى الشاطئ نفسه الذي شهد لهم لقاءات مفعمة بالحب وأحلام قلبين صغيرين تتهادى مع نسمات البحر الرقيقة في صدق، وأنفاسها كانت دائمًا لاهثة عميقة لأنها تختلس اللحظات التي تقضيها مع بهاء على غفلة من أبيها وأمها متحججة بالمشي على البحر مع بعض صديقاتها ممن تعرفت عليهن في المصيف.

انقضت ساعات لا تعرف سلمى كيف انقضت كأنها أمد لا ينتهي، فقد انفجر بداخلها جرح كبير، خواطر كدوامة هائلة تبتلعها في دورانها المجنون، الدموع تهمي من عينيها، وحاولت أن تتمالك نفسها بعد جهد جهيد، عندما دنى منها أطفالها يتشاجرون وقد نام أحمد نومًا عميقًا في حضن ابنه الصغير، وكان هذا في صالح سلمى كي لا يراها في هذه الحالة، حاولت سلمى فض التشابك بين أولادها ونهرتهم، وقامت من فورها متجهة إلى الشرفة المطلة على البحر من بعيد وهي تشعر بدقات قلبها مرهقة وئيدة والخيالات في جفون عينيها لا نهاية لها، تحاول أن تلملم نفسها كي تكون طبيعية، ولكنها لا تفهم لماذا تلح عليها الآن كل الذكريات، فقد تذكرت صورة أبيها وهو يعنفها حين رفضت الزواج بأحمد

قائلًا لها: «أحمد ابن عمك ومستقبله محترم وهيحافظ عليكِ»، وبكاءها وهي تحاول أن تتحجج بأن أحمد لها مثل أخيها، فلم تستطع أن تقصي والدها عن قراره وما كان منها إلا أن تستسلم للزواج بأحمد، خصوصًا وأن حبيبها لو صمد أكثر من ذلك لحاربا معًا من أجل الحفاظ على حبهما، لكنها لم تقوَ على المحاربة وحدها، والحقيقة أنها لم تندم يومًا على زواجها بأحمد، فهو يحبها كثيرًا ويحترمها واستطاع أن يغلق أبواب الماضي بداخلها

وخصوصًا بوجود أولادها فلذات كبدها والآن وبعد عشر سنوات، انفتح كهف الذكريات عن حب خائب يائس لم يصمد أمام أول لفحة هواء، طار كالريشة التي لا وزن لها، وكان تحسبه نهر حياتها وكوثرها، انهمرت دموعها رغمًا عنها وعلت أنفاسها تنهيدة بعيدة وبدأت تجمع نفسها في نقطة صغيرة هي حياتها، أولادها، زوجها، ارتعشت بخوف ملأ كيانها، وأخذت تسأل نفسها دون جدوى: «ما معنى هذا الشعور المبهم الذي أصابني حين رأيته؟ وهل سأراه غدًا؟ هل سينتظرني؟ أيكون جاء إلى هنا خصيصًا من أجلي؟ شكله لم يتغير بل زادته السنوات وسامة ورجولة تظهر على قسماته، ونظرات عيونه الواسعة بنظرتها القوية الواثقة، ولم يكسبه الزمن إلا بعض الكيلوهات البسيطة التي زادت جسمه عرضًا منسجمًا مع طول قامته، كانت ابتسامته تذيب قلبي، حين كنت أراه في الشرفة، وأشعر كم هو حساس وعاطفي حين كان يهتم بما زرعه من الورد والياسمين وأصيص الريحان الذي أحب رائحته، وكان كل صباح يرمي لي في شرفتي بعضًا من عيدان الريحان التي تفوح رائحتها مع النسيم، كم احتفظت بها بين كتبي وأوراقي وتحت وسادتي، آه من تلك الأيام! ما عشت مثلها، ولم تُكَرَّر في حياتي، وكان هذا آخر عهدي بالحب، وفجأة تداركت أنها أشعلت عودًا من الثقاب في قلبها ليشتعل دون أن تدري، وأفاقت من شرودها

على صوت زوجها حاملًا ابنه الصغير وهو يناديها، فاتجهت مسرعة تاركة الشرفة، وقبل أن ينطق زوجها بكلمة، بادرت هي قائلة بإصرار:

- أحمد، أنا عاوزة أسافر، أنا عاوزة أرجع مصر.

وتقدمت لتضع رأسها على كتفه، وتركت العنان لدموعها فترك ابنه على المقعد، واحتضنها بشوق قائلًا:

- الصبح نسافر يا حبيبتي، اللي يريحك أنا هاعمله لك.

وكانت هذه نهاية هذا المصيف؛ انتهى قبل أن يبدأ.



كان حلمًا في خيالي

- صباح الخير يا ماما.
- صباح الخير يا داليا، ليه أنتِ صاحية بدري؟
- اتفقت مع خالتو هدى وأحمد وعمو سامح، هنروح النادي نجري شوية ونتغدى كمان.

أومأت سميحة برأسها بالموافقة دون أن ترد وقد ظهر على وجهها بعض الحنق والتغيّر.

- ماما، أيه ما لك في حاجة؟
- لا، مافيش.

قالتها وقامت وقد أدارت ظهرها قائلة:

- هاعمل قهوة، تشربي معايا؟
- لا، أخاف أتأخر، هاخلص لبس وأنزل.
- طيب.

وبعد برهة سمعت باب الشقة كأنه أغلق! نعم، غادرت داليا دون حتى أن تسلم على أمها، لم تلبث أن عادت سميحة تحمل كوبًا من القهوة وضعته على الطاولة أمامها، وجلست واجمة كالتمثال تفكر في حيرة من أمر ابنتها وما عساها أن تفعل، فقد ركبها العناد وقسوة قلبها رغم رقتها، فهي مدللة من الجميع، دللتها جدتها، ودللها خالها، والآن تدللها خالتها بكل ألوان التدلل، أما أنا، فقد بالغت أيضًا في الاهتمام بها حتى يبدو أن كل المعايير اختلطت في حسابها، ولكن لا أعلم لماذا تقف مني هذا الموقف!

أيمكن لبنت أن تحب خالتها أكثر من أمها؟ لولا أني أعرف هدى أختي حقًّا لقلت إنها تبعد بيني وبين بنتي، ألست أنا من ربيت وكبرت وسهرت الليالي؟!

أفاقت من شرودها على الدموع التي انفجرت من مآقيها ويدها على خدها، فسحبت منديلًا من صندوقه ومسحت دموعها، وأمسكت فنجان القهوة لتجده قد فقد سخونته ورائحته، فقامت وهي تتمتم «حتى قهوتي ما عادت لها رائحة».

كان الصراع شديدًا بين رغبة داليا في السفر إلى النمسا وبين رغبة أمها في الاحتفاظ بها جانبًا، وكلما دار الحوار بينهما، يكون رفض الأم قاطعًا، وتدافع داليا عن رغبتها في أن تكمل دراستها العليا.

- يا بنتي ليه تبعدي عني وتضيعي شبابك في بلد غريبة؟!
- ماما، أنا عاوزة أسافر وأنا راحتي في السفر، والإجراءات قربت تخلص.
- داليا أنتِ بنتي الوحيدة، أنا اديتك عمري كله، طلعت بك من الدنيا، الفرحة اللي قدرت أكمل بيها أيامي، ليه عاوزة تسيبيني لوحدي؟
- ماما، من حقي أعيش شوية مع بابا زي ما عشت معاكِ.

قالتها ونبرة صوتها مستنكرة حق أمها عليها وما أنفقته في سبيلها، فكان ردها أقسى من الدهر على أمها، تسللت من عين سميحة دمعة ترقرقت على وجهها ولم تجد ما ترد به، اعتصر الألم قلبها وقامت بخطوات متعثرة، دخلت غرفتها وأغلقت الباب، جلست على طرف سريرها مغلوبة على أمرها، وتداعت خواطرها، فتذكرت يوم أن عرفت أنها حامل

وما دار بينها وبين زوجها من حديث، وقد تطاول في محاولته أن تتخلص من ذلك الجنين،

لأنه لا يريد الإنجاب وهو غير مستعد لتربية أطفال، وتحجج أن مهنته مهندسًا تحتاج إلى التفرغ لبعض السنين، انتابها ضيق شديد حين تذكرت هذا الطرف من حديثه وكيف أن حياتها تغيرت بعد هذا اليوم، كانت تعلم أنه لا يحبها ولن يحبها يومًا، وارتسمت على وجهها ابتسامة، وأخذت تتمتم كأنها تحدث أحدًا أمامها «قد تزوجني خضوعًا لأوامر والده ووالدي، أرادوا أن تظل أملاك العائلة باقية على ما هي عليه من تخطيط جدي الذي لم ينجب إلا ولدين بعد ست من البنات في وقت كانت خلفة البنات غمًّا وحملًا ثقيلًا لا يطاق، أنجب عمي أكبر أولاده وهو مصطفى، وتزوج أبي، فكنت أنا ثاني أبنائه بعد أخي جمال، فأمر جدي أن تتزوج سميحة مصطفى لكي يظل ولداه متكاتفين لا يفترقان، وهذا الزواج سيقوي الروابط الأسرية، وكان هذا منذ أن كنا أطفالًا ولم ننتبه إلى كلامهم،

فقد تربينا جميعًا في بيت العائلة، أنجب أبي ثلاث بنات وولدين، وكان عمي أكثر حظًّا من وجهة نظرهم، فقد أنجبت زوجته أربعة من الذكور، وكان هذا

من دواعي سعادة جدي وجدتي، ومرت الأعوام وكل منا لديه اتجاهاته وصدقاته، ولم نكن نعرف أن الوعد الذي قطعه جدي على عمي الكبير وأبي بمنزلة ميراث، حتى بعد موت جدي سينفذ بوصفه وصية واجبة.

عندما وصلت إلى الشهادة الثانوية كان مصطفى قد تخرج في كلية الهندسة، وفور تخرجه طالبه أبوه بالزواج، وأن كل شيء جاهز، ولا داعي لانتظار الوظيفة، كان مصطفى يجاهر بأنه لا يريد الزواج في الوقت الحالي، وكان هناك شيء يخفيه ويحتفظ به لنفسه فقط،

ولم يستطع أحد أن يكشف سره، فقد كان دائمًا كأن شيئًا يشده ويستغرقه، وأغلب وقته في غرفته منفردًا بنفسه، لم يستطع مصطفى مجابهة إعصار العائلة

وصرامة والده وقسوة والدي وما ورثاه من جدي من تمسك بتقاليد بالية (البنت لابن عمها)».

وفجأة، خانتها قدرتها على التحمل وهي جالسة على طرف سريرها في وضع مؤلم لجسدها، فقد أحست بالآلام في عضلاتها أخرجتها من سيل الذكريات التي هاجمتها دون استئذان، فأرخت جسدها واعتدلت في وضعية النوم مستسلمة لآلامها التي استحالت إلى أنات مكتومة في صدرها.

دق جرس هاتفها، وكان على الطاولة في الصالة حيث تركته وصل الرنين إلى أذنيها، لكنها لا تريد أن تستجيب، توقف الرنين لحظات، ثم عاد يدق من جديد كأن المتصل لن ييأس حتى يحصل على رد، فنهضت سميحة من فراشها وهي تشعر أن السنوات انقضت من عمرها ولم تحقق شيئًا، حتى ابنتها التي انطوت عليها الأيام لم تفلح في الاحتفاظ بها، أمسكت بهاتفها وقد سكت رنينه عندما وصلت إليه، نظرت باحثة عن المتصل لتجد أنها أختها هدى، فترددت قبل أن تتصل بها:

- هدى إزيك؟ خير في إيه؟
- خير يا سميحة، إيه عمالة أرن عليكِ، أنتِ فين؟
- كنت على السرير والتليفون في الصالة.
- إيه دا؟! أنتِ لسة نايمة! احنا بقينا الظهر، مش عوايدك أنتِ بتصحي بدري.
- لا، أنا صاحية الفجر بس كنت مريحة شوية.
- آه، طب لو فاضية ما تيجي نتغدى سوا.
- لا، مابحبش أكل النوادي.
- نوادي إيه؟ أنا في البيت.
- إزاي! أنتِ ماروحتيش النادي؟ داليا قالت لي إنكم رايحين.

- آه، الولاد راحوا مع داليا وسامح كمان بيحب يجري الصبح، وقالوا هيتغدوا هناك بس أنتِ عارفة أنا مش بحب أجري ولا بحب أكل النادي زيك.
- أنا قاعدة لوحدي تعالي نتغدى سوا، هاعمل لك اللازانيا اللي أنتِ بتحبيها، وكمان عندي شوية حكايات كتيرة تعالي ونحكي سوا، واحشاني، ألو ألو! سميحة!
- أيوا سامعاكِ.

قالتها سميحة كأنها لم تسمعها، ولم تنتبه إلى حديثها.

- سامعاني إيه؟ ما لك يا سميحة صوتك مش عاجبني؟
- مافيش حاجة والله.
- طيب أنا هاجي لك، تسمحي لي؟
- آه طبعًا تعالي.
- عندك غدا ولا أجيب غدايا معايا وأنا جاية؟
- لا يا لمضة، عندي اللي تحبيه، تعالي.
- خلاص مسافة السكة، باي.
- باي.

أنهت المكالمة وهي غير مستعدة لهذه الزيارة، ولكنها لا تستطيع أن ترفض أبدًا، فهدى أختها القريبة منها التي تبوح لها بكل ما في قلبها، وكذلك هدى منذ أن كانتا طفلتين فقد كانتا قريبتين من بعضهما كأنهما توأمان، فسميحة تكبرها بسنة واحدة، أما أختهم الصغرى شيماء فكانت أقرب إلى أخيهم حسن وما كان بينها وبين أختيها أي اتفاق، بل اختلاف مستمر، وكان حسن وشيماء بحكم أن بينهما عام

أيضًا أو أكثر بعدة شهور، كانت صداقتهم قوية ومقالبهم تزعج الكل، وشقاوتهم غير محتملة أبدًا.

ابتسمت في نفسها، حين تذكرت لما كان حسن يتفق مع شيماء ليعبثوا بغرفة هدى وسميحة، ولطالما دبروا لهما المقالب المرعبة التي تفزعهم، أو حين استيقظت ذات يوم من نومها لتجد وجهها ويديها مرسومين بقلم الألوان الأسود فقامت صارخة، ولا فائدة من عقاب حسن وشيماء فهي هوايتهم المفضلة، صنع المقالب ثم الضحك والزهو بنجاحهم في ذلك.

مصمصت سميحة شفتيها، وفكرت «كانت أيامًا لا تُعوَّض، يا ليتها تعود، ونظل أطفالًا لا هم لنا إلا اللعب».

قامت من فورها متجهة إلى المطبخ لتتفحص ما يوجد عندها من طعام يمكن أن تعده لضيافة أختها التي تَعتَبِر الطعام مزاجًا وفنًّا من فنون الحياة.

أمسكت هدى كوبًا من الشاي، واتجهت إلى الشرفة بعد أن انتهيا من تناول الغداء الذي أعدته لها سميحة بكل ما تمتلك من موهبة، لكيلا تتعرض لتعليق لاذع من هدى التي تَعتَبِر أن مائدة الطعام لا بد وأن تكون ذات ألوان، وتشَبّهها بزهرية من الورد الملون فواح الرائحة.

أخذت رشفة من كوبها ناظرة إلى المنظر الجميل المُطِل على حديقة صغيرة في منتصف الشارع، ولكنها منسقة بنظام يجعل منها كأنها صورة لمنظر طبيعي جذاب، ويبدو على وجهها وهي تحتسي الشاي أنها راضية عما تذوقته من أنواع الطعام، دخلت عليها سميحة تحمل كوبها أيضًا، وجلست أمامها مرحبة بها في هدوء كأن حالها قد تحسن حين رأت أختها، فبادرتها قائلة:

- ليكِ أكتر من شهر ماجيتيش، ليه بقى؟ أحمد وسارة خلاص كبروا والمسئولية بقت خفيفة عليكِ، ليه مش بتيجي ديمًا؟
- يا سميحة والله العيال كل ما بتكبر مسئوليتها بتزيد، أنتِ معاكِ داليا وعارفة.
- تنهدت سميحة تنهيدة حارة قائلة:
- داليا، آآه.
- إيه يا سميحة في إيه؟ ما لها داليا؟!
- أنتِ مش عارفة؟
- عارفة إيه؟
- داليا ماقلتلكيش إنها عاوزة تسافر النمسا؟
- إيه؟! النمسا! ليه؟ واشمعنى النمسا؟
- بتقول عاوزة تكمل دراستها، وعاوزة تروح تعيش مع أبوها.

وضعت هدى الكوب من يدها قاضبة حاجبيها وباستغراب قالت:

- نعم؟! أبوها!
- أيوا، أبوها.
- وإيه اللي فكرها بيه دلوقتي؟
- ماعرفش، هي من يوم ما رجعت من زيارة البلد عند عمامها وهي متغيرة.
- ليه؟ إيه الجديد؟ ما طول عمرها بتزور عمامها من فترة لفترة، إيه اللي جد عليها؟
- باقول لك ماعرفش، ماعرفش.

قالتها وزفرت زفرة يكاد يلمس لهيبها وجه أختها.

- شوفي يا سميحة، أنتِ الغلطانة.

نظرت إليها سميحة بتعجب دون أن ترد.

- أيوا، ماتبصيليش كدا، أنتِ اللي مخبية عليها اللي حصل وكل الناس فاكرة إن أنتِ اللي طلبتِ الطلاق من مصطفى وأنك أنتِ اللي سبتيه، أنتِ اللي ظلمتِ نفسك وظلمتِ بنتك، وأنا ياما قلت لك ماتشيليش الهم دا لوحدك.

قاطعتها سميحة وانتفضت واقفة:

- تاااني!

وتركتها في الشرفة، واتجهت إلى الصالة لترمي بجسدها على الأريكة محدثة صوتًا لارتطامها المتعمد، تبعتها هدى في خطوات غاضبة لتجلس أمامها على أقرب مقعد قائلة:

- أنتِ ليه بتزعلي من صراحتي؟
- هدى، دي مش صراحة، دا إصرار على موقف أنا شرحته لك ألف مرة.
- أيوا، بس أنا مش مقتنعة أنك عشان تحافظي لبنتك على صورة أبوها تشوهي صورتك أنتِ قدامها وقدام العيلة كلها.
- يا هدى افهمي، بنتي لما أبوها سابنا كانت طفلة، لو ربيتها على إن أبوها سابنا، كانت دلوقتي معقدة نفسيًّا وحاسة باليتم.
- يا سلاااام!

قالتها هدى بسخرية، وأكملت:

- وهي دلوقتي ما شاء الله عليها! طب أهو أعمامها لعبوا في مخها وصدقتهم، إيه رأيك؟
- بصي أنا ماعرفش مين لعب بمخها ولا أعرف سبب تغييرها المفاجئ، بس اللي أعرفه ومتأكدة منه إن أبوها مش عاوزها ومش هيستقبلها زي ما هي فاكرة ودا بس اللي مزعلني ومش عارفة أوصله لها إزاي.

جزعت هدى صارخة فيها وقالت:

- يا شيخة فوقي بقى، دا اللي بتفكري فيه! مافكرتيش ممكن يكونوا قالوا إيه لبنتك عنك خلاها تفكر تسافر لأبوها! يووووه، أنتِ هتفضلي تيجي على نفسك لحد إمتى؟ كفاية أنا مش هاقدر أسكت أكتر من كدا، أنتِ زمان أخدتِ عهد عليا إني ماتكلمش وأنا وفيت بوعدي، بس كدا كتير، داليا كبرت وأنتِ ممكن بسكوتك تضيعي كل اللي عملتيه عشان تحافظي عليها.

نظرت إليها سميحة وقد لمعت الدموع في عيونها وقالت ونبرات صوتها متوسلة:

- هدى، أنا لسه متمسكة بالوعد اللي أخدته منك، ماتخلفيش وعدك معايا أبدًا.

ولم تجب هدى بلسانها على أختها، ولكن أجابت في داخلها بشيء يقول: «لا، أنا مش هاسيبك تظلمي نفسك تاني، مش هاسكت ومش هاقول، إزاي ماعرفش، بس لازم أعمل حاجة».

وقامت من فورها معتذرة من أختها أنها لا بد أن تعود إلى البيت قبل عودة أولادها، ردت عليها سميحة باستغراب:

- أنتِ مش كنتِ هتكملي اليوم معايا؟ وبعدين إيه الداعي يعني تروحي قبل العيال؟
- معلش أنا شايفاكِ اتضايقتِ من الحوار، وأنا كمان، فبقول أروح وأسيبك تفكري براحتك وتأكدي إني بكرة بالكتير هاكون أنا كمان وصلت لحل معقول وهاجي أقول لك عليه، ويا رب نخلص بقى من الحوار دا للأبد.

وقامت مندفعة ناحية باب الشقة بعد أن أخذت حقيبة يدها، فتحت الباب وسلمت على أختها وقَبَّلتها واحتضنتها في حنان، وقفت أمام المصعد ضغطت على الزر وانتظرته، وأختها تقف جوارها حتى جاء المصعد ففتحت الباب ودخلت مبتسمة لأختها، وانغلق الباب ونزل بها تاركة أختها لوحدتها لتدخل هي الأخرى، وأغلقت بابها ولم تستطع غلق عقلها، الماضي يقتحم الحاضر، وكلما حاولت غلق بابه ينفتح له باب جديد بإلحاح يكاد يهزمها ويعصف بها عائدًا من حيث بدأت أن تخفيه.

غادرت هدى بيت أختها، ولكن ليس إلى بيتها كما قالت، وإنما اتجهت فورًا إلى النادي حيث زوجها وأولادها وداليا، بعد أن اتصلت بزوجها وتأكدت أنهم ما زالوا في النادي جالسين يتبادلون الأحاديث والنكات بعد أن انضم إليهم بعض الأصدقاء المشتركين.

بلغت هدى باب النادي ولأول مرة تشعر أنها مقبلة على مجهول لا تعلمه، وكلما اقتربت من مكانهم علت أنفاسها كأن روحها ستُزهَق، وعندما رمقتهم من بُعد

أخذت تراقبهم وهم يضحكون في سعادة فبدأت الأفكار تدور في رأسها وقالت لنفسها: «ليه أنا أقف الموقف دا؟»، وعندما وصلت إلى طاولتهم فوجئوا جميعًا بها إلا زوجها، دعوها إلى مشاركة الحديث وبادرها زوجها سائلًا:

- ليه سميحة ماجتش معاكِ؟

وكان السؤال مفاجأة لداليا، وبسرعة تداركت هدى الأمر قائلة:

- لا، أنا روحت اتغديت عند سميحة وبعدين كنت هاروح على البيت بس لاقيت إني نسيت المفتاح فقلت مافيش غير إني آجي وأروح معاكم.

قالتها والارتباك ينجرف مع كل حرف تنطق به، قطع عليها عناء تصنعها لموقف زوجها وهو يسألها عن ماذا تريد أن يطلب لها من مشروب أو «آيس كريم» فتنهدت قائلة:

- لا مش عاوزة حاجة، أنا بس عاوزة أتمشى شوية، أكلت أكل تقيل عند سميحة وحاسة بوخم، مين يجي يتمشى معايا؟
- فرد زوجها: أنا تعبت النهار دا، جريت كتير.

وكانت تعلم أن أحمد وسارة أولادها لن يتركوا أصدقاءهم ليقوموا معها دون مبرر، فلم يرد أحد، فابتسمت بلؤم موجهة كلامها إلى داليا:

- دولّي، تعالي أنتِ معايا، أنتِ حبيبتي.

لم تخِل هذه الحيلة على داليا ولكنها تظاهرت بالغباء وقامت مُلَبِّية رغبة خالتها التي لم تصمد أمام صمت داليا التي تنتظر كلام خالتها، فبادرتها قائلة:

- داليا حبيبتي أنتِ عارفة طبعًا أني باحبك جدًّا.

أومأت داليا برأسها على الموافقة دون أن تنطق بكلمة، فراحت خالتها تستجمع نفسها أمام نظرات داليا، فسألتها دون مقدمات:

- داليا، أنتِ صحيح عاوزة تسافري؟
- آه يا خالتو، واضح إن ماما حكت لك كل حاجة.
- وأنتِ إزاي ماقلتليش؟ أومال إزاي احنا أصحاب؟!
- عادي يا خالتو ماجتش مناسبة.

قاطعتها قائلة:

- داليا، يا نتكلم بصراحة يا نقفل الموضوع نهائي.

تنهدت داليا بعمق قائلة:

- أنا عارفة إن حضرتك مش هاتوافقيني على السفر، فقلت أخلص الإجراءات وبعدين أحاول أقنعك، وكمان كنت هاخليكِ تقنعي ماما.
- داليا أنا مش هاسألك أعمامك ملو دماغك بإيه، ولا هاقول لك مسافرة ليه، بس لازم تعرفي أن أمك ضحت بنفسها علشانك واتظلمت كتير.

قاطعتها داليا كأنها غير مصدقة:

- لا يا خالتو، ماما هي اللي ظلمتني لما طلبت الطلاق من بابا ومارضيتش تسافر معاه وحرمتني من إني أعيش مع بابا أو حتى أشوفه.

نهتها خالتها بلهجة آمرة:

- داليا! كفاية كدا، كل دا ماحصلش، مافكرتيش أنه حتى لو دا صح، طب هي كمان منعت أبوكِ أنه يتصل بيكِ؟ أو حتى يحاول يجي يشوفك كل السنين دي؟ ردي عليا.

لم تتردد داليا لحظة في أن تسأل خالتها:

- قصدك إيه يا خالتو؟

ردت عليها باقتضاب:

- داليا، روحي البيت واسألي ماما عن الجواب، وبعدين قرري هتسافري ولا هتعملي إيه، وساعتها هستنى تيجي تحكي لي أعمامك قالوا لك إيه، قولي لماما لازم تقري الجواب.

دهشت داليا:

- جواب إيه؟ فهميني يا خالتو، أنا مش عاوزة أتكلم مع ماما إلا لما أفهم.
- لا، أنا مش هافهمك حاجة، أنا هاستنى أنتِ تيجي تقولي لي فهمتِ إيه، يلا بينا عشان نروح.

حاولت داليا أن تعرف أي تفاصيل من خالتها لكن دون جدوى.

رجعت داليا إلى البيت متعبة بخطوات متثاقلة لتجد أمها في غرفتها والإضاءة توضح أنها ما زالت مستيقظة، فهمَّت أن تدخل عليها وتسألها عن كل ما سمعته من خالتها، ولكنها قررت أن تتمهل حتى الصباح فنادت من خارج باب الغرفة:

ماما، أنتِ صاحية؟

جاء صوت أمها:

- أيوا يا داليا، صاحية.
- طب أنا هانام يا ماما تصبحي على خير.
- طيب تصبحي على خير.

استلقت داليا سريرها تمضغ على مهل كل ما سمعته من خالتها وكل ما تنتظر سماعه من والدتها.

قامت في الصباح ومعها كل التساؤلات والحَيرة التي باتت معها ليلتها، توجهت إلى الشرفة حيث أمها تحتسي فنجان قهوتها شاردة في أفكارها، جلست داليا أمامها والكآبة تجرف روحها.

- ماما، صباح الخير.
- أهلًا يا داليا، يا ترى صاحية بدري رايحة فين النهار دا؟
- لا يا ماما، أنا مش خارجة، أنا عاوزة أتكلم معاكِ.
- من الصبح كدا! فوقي وقومي صلي وافطري وبعدين اليوم طويل نتكلم براحتنا.
- أنا ماليش نفس دلوقتي آكل، والحمد لله صلّيت، ماما؟
- نعم يا داليا؟
- إيه حكاية الجواب؟

ابتسمت سميحة بحزن وقد شعرت بأن السؤال خدش قلبها وقالت غير مصدقة لما تسمع:

- جواب إيه؟

- خالتو قالت لي على كل حاجة، وقالت لي أسألك على الجواب.

لم تستطع أن تمنع المرارة التي تتسرب من عينها، فقد شعرت أن هدى خانت ما بينهم من وعد وأخبرت داليا عن السر الذي حملته في قلبها سنين طويلة، ردت على ابنتها وهي تكاد تهوي من توجع قلبها:

- يا بنتي الكلام في الماضي مش هيرجع اللي راح، وخالتك مالهاش الحق إنها تفتح صفحات من حياتي من غير إذني.
- ماما، أنا عاوزة أشوف الجواب ومش هاتنازل عن كدا.

لم تجد سميحة ما تداري به الجرح الكامن في أعماقها، فقامت إلى غرفتها وتبعتها داليا بإصرار وترقب عازمة على أن تنهي تلك القصة بنهايتها الحقيقية.

فتحت سميحة أحد أدراج خزينة ملابسها، درج سري غير مرئٍ لتُخرج منه حقيبة من القماش أعطته لابنتها، أخذته وجلست على طرف سرير أمها، وفتحته دون انتظار لتجد فيه مظروفًا أبيض قديمًا، فتحته لتجد خطابًا ظهرت عليه علامات الزمن، ولكنه ما زال بحالة جيدة، نظرت إلى أمها التي تجلس أمامها على الأريكة بجوار السرير ثم فتحت الخطاب لتقرأه وهي تحاول أن تبدو جامدة.

...

«بنت عمي سميحة..

كما تعلمين أن زواجنا كان تحقيقًا لرغبة الأهل والعائلة، دون رغبة مني أو منك، وكان من الصعب أن أقاوم رغبة والدي، ولكني لست الرجل الذي يتزوج لمجرد أن يمتلك أنثى في بيته تُضاف إلى باقي

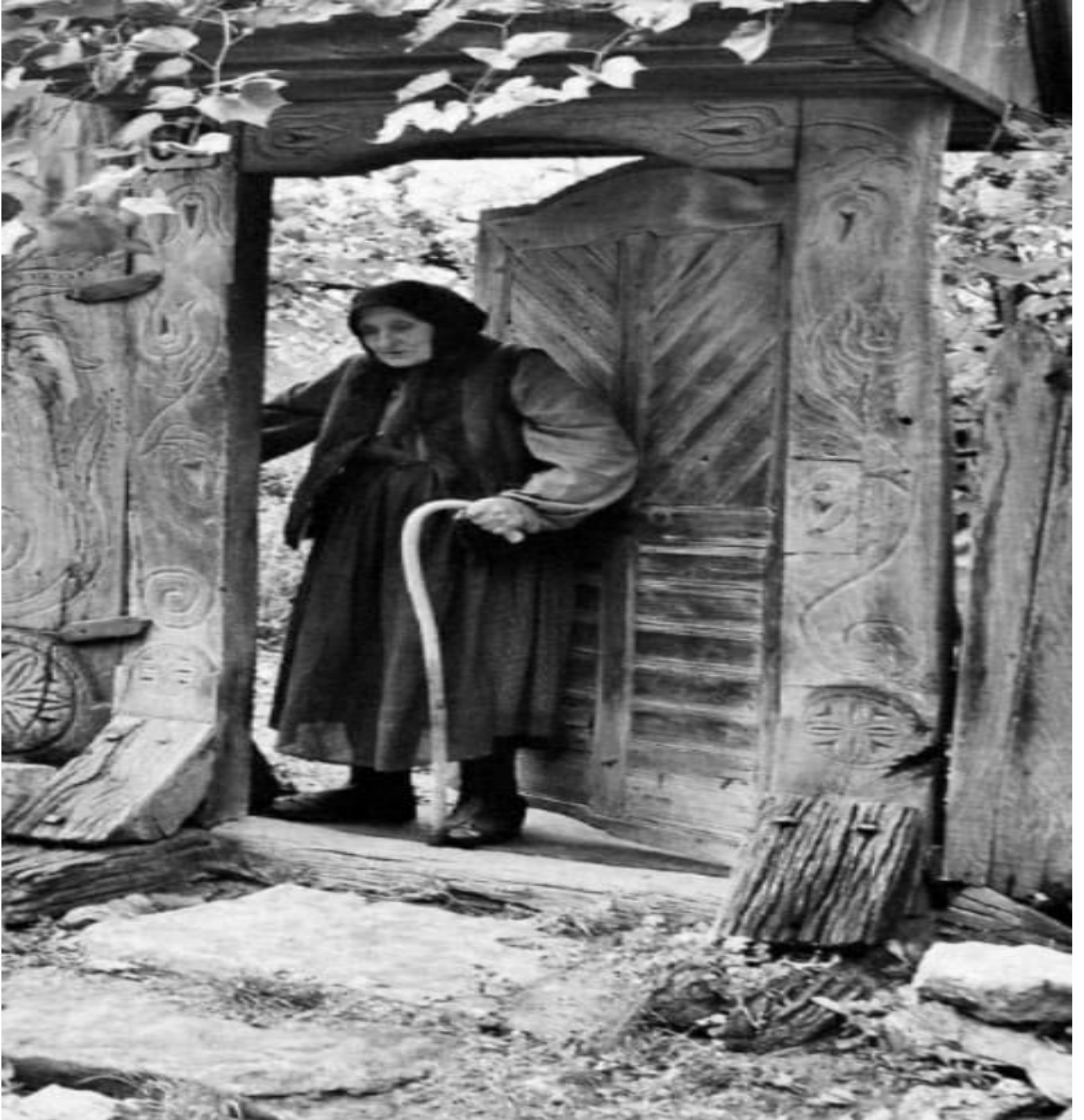
ممتلكاته، تغاضيت عن حلم حياتي مؤجلًا فقط لفترة كنت أعدها باليوم، وكان من المستحيل أن أُكمل حياة رسمها لي غيري، أنتِ تعلمين أني منذ أول يوم في الجامعة قابلتها، هي من عزمت أن أكمل حياتي معها دون غيرها، بل وأغلقت أحلامي وعمري عليها، وما كان ليثنيني عنها أي شيء أو ميراث، والآن وقد توفي أبي وأبوكِ من قبله، فآن للعصفور أن يحطم القفص وينطلق ليرفرف بجناحيه إلى حيث يهوى ودون رجوع، سامحيني إن شئتِ أو لا تسامحيني، فلن أظلمك وأظلم نفسي وقتًا أكثر لن أحتمله، ربما لم أكن الزوج المناسب لكِ، ولكن لم أختر ذلك، ولعلك فهمتِ الآن لماذا كنت لا أريد طفلًا يكون الضحية لمشروع لن يكتمل، أو أن أضحي من أجله بعمري كله وأعرف نفسي لن أستطيع فعل ذلك كما هو الحال، فلن أتراجع ولا حتى من أجل ابنتي التي أعطاها لنا القدر رغمًا عني.

عندما يصلك خطابي سأكون غادرت إلى بعيد، وقد رتبت لكِ الدخل الشهري وكل ما يلزم داليا وكل الأمور الأخرى، أتمنى لكِ حياة أفضل في بداية جديدة يعوضك بها الله عن كل ما مضى ويعينكِ على تربية البنت وأي شيء تحتاجين إليه اتصلي بأخي سلمان، هو على علم بكل شيء.

مرفق مع هذا الخطاب ورقة الطلاق مع الحفاظ على كل حقوقك وحقوق البنت.

تحياتي وخالص اعتذاري.

مصطفى».



بَهلول

نهضت الخالة بَهلول فزعة من نومها على صوت صراخ ونحيب، فجلست في فراشها تتلصص السمع لتحدد الناحية التي تلقي إلى سمعها هذه الصرخات، واستغاثة صوت نسائي ينادي: «حرام عليك، ماعملتش حاجة، مش أنا اللي قلت».

إنه صوت تعرفه جيدًا، إنه صوت إبتسام، هي ابتسام وقد تأكدت، عندما سمعتها تنادي: الحقيني يا أحلام.

فركت عيناها لتذيل ما علق بهما وتفيق من نعاسها وقامت في كهولة تستند إلى الحوائط لتساعدها على تثبيت أقدامها على الأرض، فما زال النوم يخدر عضلاتها، فقد قاربت الساعة على الواحدة منتصف الليل وهي تستسلم إلى النوم بعد صلاة العشاء مباشرة، لتستيقظ مع بزوغ الفجر تدبي في بيتها دون كلل، وصلت إلى الباب في مشقة تغالب إحساسها بالنوم وهي تقول لنفسها: «الله يجازيك يا عبد الحميد، كل يوم والتاني عامل لك مصيبة وتصحينا من أحلى نومة، الله يقطع دي جيرة، الله يرحم أبوك، وكان يومًا أسود يوم ما جه سكن جنبي».

أسكتت صوت نفسها وأخذت تقرع باب جيرانها بواسطة الكفة الحديدية العتيقة التي تشبه في شكلها كف اليد تمامًا، وكانت أغلب البوابات الخشبية الضخمة للبيوت تعلق عليها هذه الأداة لتساعد على توصيل قرع الباب من الخارج إلى الداخل بقوة مزعجة

محدثة صوتًا عاليًا للغاية منبهًا أبعد شخص عن الباب وتوقظ النائم، بل وينتبه جميع الجيران أن هذا البيت جاءه زائر، طبعًا دون تعمد ولكن الصوت غاية في الإزعاج.

وقفت على الباب تتمتم بكلمات ساخطة تنم عن غضب شديد، وقد طالت وقفتها ولم يهتم أحد بمن الطارق، حيث إن المعركة على أوجها والصرخات متلاحقة، وصوت طرق، وهبد، وخبطات مكتومة وكأن منجد القطن العفي ينجد مرتبة ضخمة.

ولكن الخالة بَهلول ظلت تقرع الباب بإصرار غير عازمة أن ترجع إلى بيتها حتى تعرف ما الذي يحدث في بيت جارها محمد عبد الحميد، هي ليست أول مرة وتكاد تعرف

كل ما يدور وراء الباب دون الاحتياج إلى أن يفتحوا لها، ولكن عادتها أن تتدخل في أي مشكلة لتصلح بين جيرانها في الحي بأكمله، وإن خرجت من بيتها فلن تعود حتى

تدلف بأنفها في كل تفصيلة صغيرة وكبيرة، وكأنها كبيرة الشدة وبخبرتها لم تفشل يومًا في ذلك.

وليس هذا كل شيء بل هي القابلة في البلدة، ووصفاتها بالأعشاب لطالما عالجت من علل كثيرة، حتى ختان البنات قد كانت خبيرة وكأنها جراح متمكن، بأناملها الواثقة وقلبها الصخرى الذي لا يعرف للخوف طريقًا، ولم تهزه عثرات الزمن، والفتاة التي تقع تحت يدها

تقابل «أمنا الغولة» التي تحكى عنها الأساطير، فتذبحها ثم تكويها بخرقة مليئة بالأعشاب الحريفة التي تنهش جرحها دون رحمة، والغريب أنهن يمتثلن للشفاء

سريعًا ودون أي آثار ولا ندوبات، ولا أحد يعرف ما نوع الأعشاب التي تستخدمها تلك العجوز التي قاربت على الستين من عمرها وتبدو وكأنها بنت الأربعين، ولا أبالغ في أن صحتها وقوامها الرفيع دون كتلة دهن واحدة تجعل من يراها لا يستطع تحديد عمرها الحقيقي، وحظوها على ثقة كل من يعرفها جعلت ثقتها بنفسها تصل إلى حد الغرور والتحدى لأي شخص يقف أمامها، بل وما قالت شيئًا إلا وفعلته ببراعة لا نظير لها.

بعد أن بدأ اليأس يدب داخلها من أن أحدًا يفتح لها الباب قررت استخدام طريقة أخرى، لتجبرهم على الخضوع إلى رغبتها وإرضاء فضولها القاتل، فأخذت تصيح بصوتها الجهوري

المحشرج بالسنوات التي صرخت فيها لامرأة في أثناء الولادة، أو صرخة تهديد لفتاة تختنها أو حتى صرخة في وجه رجل لا يصبر على جرحٍ يؤلمه، فما كان منها إلا أن أخذت تصرخ: «افتحوا الباب، افتحوا لي يا ولاد الـ (.....) افتحوا، أنتِ يا بت يا أحلام، روحتِ فين يا كوثر؟ افتحي جاتك خيبة على تربيتك السودا، أنتِ يا خايبة! يا واد يا عبد الحميد يا قليل الرباية، افتح يا وااااد».

كأن نداءتها كانت الماء الذي انسكب على كومة من الحطب المتقد حتى صار دخانًا كثيفًا، وكان هذا الدخان عبد الحميد الذي انفجر بوابل من الشتائم محاولًا أن يصرفها عن الباب قائلًا:

- مش وقته يا خالة بَهلول، روحي والصبح ابقي تعالي اتحشري براحتك.
- بقول لك افتح يا مخبول، يا ابن المجانين.
- بقول لك روحي يا بَهلول؛ لو فتحت الباب هاسويكِ بالأرض.

- بَهلول كدا يا قليل الأدب! وكمان بتشتم؟ طب افتح وأنا هاوريك كيف أنا اللي هاسويك بالأرض يا ابن كوثر.

قالتها بثقة لا يشوبها أدنى شك إنه إذا انفتح الباب فلن يستطع إيذاءها، رغم أنه متهور

في كلامه عندما يغضب يعمى بصره، وينحل لسانه بالقبح حتى منذ أن كان صغيرًا، لأنه الولد المدلل على ثلاث بنات، فقد بالغ أبوه -الله يرحمه- في تدليله وتلبية جميع طلباته مهما بلغت سخافتها، وكان كلما ضرب إحدى أخواته لا يجد رادعًا يرجعه عن تصرفاته

بل كان أبوه ينتصر له وينصفه عليهم وعلى الجميع.

كانت كفة عبد الحميد هي الراجحة دائمًا، حتى ما عاد يعرف للأدب قوانين ولا للمعاملة حدودًا، والكل يتحاشاه مخافة لسانه اللاذع وتصرفاته غير المسئولة، كل هذا وثقة بَهلول بنفسها جعلتها لا تبالي، بل وأخذت ترميه بألفاظ مستفزة، والتحدي يملأ خلجاتها وهو يقسم إذا لم ترجع إلى بيتها فسيحطم رأسها على حجر الباب.

ولا فائدة من تراجعها، فهي تملك من قوة القلب ما لا يملكه كثير من الرجال الأشداء، فقد أسماها أبوها بهلول على اسم جدها لما رآها حين ولادتها سمراء اللون، ملامحها أبدًا لا تشبه البنات، فعيونها بارزة وواسعة الجفون وفمها غليظ الشفاة وعظام صدغها حادة تشبه أباها في كل شيء، وكانت أمها كلما ولدت مولودًا مات بعد أيام

من ولادته.، وعلى حسب المعتقدات القديمة، فلا بد من أن يلقبوها باسم غريب

أو غير مألوف، فيلتهي الحساد وينصرف الأذى، فأطلقوا عليها اسم «بَهلول» كي تعيش، وها قد عاشت ولكن على ما يبدو أن هيئتها وملامحها وصوتها القوي جعلوها أشبه بالرجال، فلم يفكر أي شخص أن يطلبها للزواج وقد ورثت عن أمها وجدتها

خبرتهما ومواهبهما الفذة في كل شيء، وساعدها في ذلك ذكاؤها الحاذق وتفرغها، فهي لا تزال بكرًا لم تتزوج، وبالطبع لم تنجب.

أصرت بَهلول على أن يفتح الباب دون اكتراث لتهديداته المتهورة، وإصرارها جعله يستشيط غضبًا، كيف لا تخشاه؟! هذه العجوز الشمطاء بجسمها النحيل الذي لا يحتمل هفوة ليتحطم بلكمة واحدة من ساعده، فانصرف عن شجاره مع أخته التي كان يضربها لأنها أفضت بسره لأمه وما رأته بعينها من تصرفاته المشينة مع ابنة عمه، حين كانت تزورهم صباح أمس، وعندما واجهته أمه، انهال على أخته توبيخًا محاولًا تكذيبها وإنكار كل ما قالته، فأكدت كلامها بالدلائل، وواجهته قائلة:

- أنت ماتستحقش اسم عبد الحميد اللي بابا سماه لك على اسم جدي عبد الحميد اللي كان شيخ في الأزهر وكل الناس بتحلف بعلمه وصلاحه، وكان حافظًا لكتاب الله.

ولكنه لم يكن يهتم بكل هذا قدر ما ينساق إلى نذواته، وما كان يومًا يكبح جماح غروره، بل وكان يسيء لأخواته مر الإساءة بعد وفاة والدهم، وها هو اليوم يوسع أخته ضربًا لكي يخرسها عن قول الحقيقة المشينة أمام أمه التي لو تأكدت من صحة كلام أخته ستجمع أعمامه وخاله ليؤدبونه، ولو لزم الأمر لنهرته خارج البيت طيب الأركان، وبإصرار بَهلول على قرع الباب والدخول رغم أنفه انتهزها

فرصة سانحة ليلهي أمه، ويغطي على ما فعله بمشادة بينه وبين بَهلول، بل واتجه مسرعًا أقدامه تدق الأرض كالثور الهائج نحو بوابة البيت وأمه تصرخ منادية له:

- تعالى هنا يا عبد الحميد، إياك تلمس خالتك بَهلول، يا واااد، الست متعودة علينا، تعالى وأنا هفتح لها الباب.

لم يبالِ عبد الحميد بنداء أمه وصراخ إخوته، انطلق نحو البوابة ففتحها بقوة رغم ضخامتها وصعوبة المغاليق التي تحكم غلقها، فتحها لم يجد بَهلول أمامه كأنها غادرت، فانطلق عدوًا وراءها خارجًا ليعترض قدمه شيء لم ينتبه إليه فارتمى لمسافة بعيدة خارج عتبة الباب وانكفأ على وجهه محدثًا ارتطامًا شديدًا مطلِقًا صرخة مدوية لم يستطع معها الحراك، ركضت أمه وراءه وأخواته بفزع وشوق واندفعت صوبه ملتاعة لما أصابه وهو يتوجع بأنين لا يكاد يُسمَع من شدة الألم، آثار الدماء على ساعده ورأسه، جذبته أمه واحتضنته إلى صدرها قائلة:

- عبد الحميد يا ولدي إيه اللي عمل فيك كدا؟

بينما وقف أخواته مذهولين فاغري أفواههم في صمت، وفجأة زادت الصرامة على وجه أمه حين التفتت لترى بَهلول تقف على جانب البوابة فتثمرت نظراتها وقالت في دهشة:

- بَهلول أنتِ اللي...

نظرت إليها بَهلول نظرة غاضبة وفي يدها عصاها العاجية الثقيلة، ماتت الكلمات في حلق كوثر أم عبد الحميد لم تكن تتوقع أن تواجه بهلول ابنها وسوء أدبه بهذا الدهاء والإصرار على أن تؤدبه بطريقتها الخاصة، نظرت بَهلول إلى عبد الحميد الذي لم يستطع أن يلملم قواه ولا أن يقف حتى اللحظة من سقوطه وقد تعفر

رأسه بتراب الأرض التي تصبغت بدمه، وبلهجة مشتعلة بالوعيد قالت له: «ديل الكلب عمره ما ينعدل أبدًا».

نظر إليها عبد الحميد مدهوشًا بأعين جاحظة، ولم ينبس بكلمة وهو يتلوى من شدة الألم، فقد كان واثقًا أنه المنتصر في تلك المشاجرة، ولكن الخالة بَهلول بدهائها وحسن خبرتها ومكرها المتقن جعلته موضع سخرية، حيث انطلق بعض الجيران نحوه وهو ملقى على الأرض بين أذرع أمه لا يقوى على النهوض شاعرًا بالانهيار والنظرات حوله تلدغه، وامتدت أيدي الكثير منهم ليساعدوه على القيام من عرض الطريق مشفقين عليه، والكل يسأل ماذا جرى ولا أحد يجيب، حتى تكلمت الخالة بَهلول موجهة الكلام لأمه ولباقي الناس قائلة:

- ساعدوه، شيلوه ونيموه على الكنبة في الصالة وشربوه شويةماية، هاروح أجيب له مطهر ولبخه هيربطها عالجرح والصبح هيكون عال العال.

لم تنتظر ردًا وانطلقت بخطوات واثقة متجهة إلى بيتها لتحضر الدواء بعد ان حسمت العراك لصالحها بحيلتها الذكية حين سمعت خطوات عبد الحميد متجهًا إليها باندفاع

فقد صدرت عصاها العاج بالعرض أمام الباب لتعترض أقدامه، فكان ما كان. والآن هي من ستداويه بأعشابها وهو في نظرها لا يساوي أكثر من حشرة أو شيء هَش تكسره هفوة.

الفهرس

للتواصل

البريد الإلكتروني للكاتب:

abnelkhalil9@gmail.com